جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي

٥٦٤/ ٦٤٨ هـ - ١١٦٩م/ ١٢٥٠م

رسالة مقدمة من الطالب

طلال سعود العصيمي

لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية



بإشراف الأستاذ الدكتور
محمد عبد العال أحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة
جامعة أم القرى

١٤٠٤هـ/١٩٨٤م


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة ---------------------------- ٤

الفصل الأول

أصول الإقطاع الحربي ---------------- ٢١

الفصل الثاني

الخدمات العسكرية والمدنية في الإقطاع الأيوبي ---- ٥٦

الفصل الثالث

حقوق المقطع في الإقطاع الأيوبي -------- ١٠٥

الفصل الرابع

التنظيمات الإقطاعية ----------------- ١٤٣

الخاتمة ونتائج البحث ----------------- ١٩٤

الملاحق ---------------------------- ٢٠١

المصادر والمراجع : ------------------ ٢٣١

أولا : المصادر

أ - المخطوطات

ب - المطبوعات

ثانيا : المراجع

أ - المراجع العربية

ب - المراجع الأجنبية

المقدّمة

موضوع هذا البحث هو الاقطاع الحربى فى العصر الأيوبى •

وترجع أهمية هذا الموضوع الى أن النظام الذى اتبع بهذا الشأن فى تلك الفترة كان عاملا رئيسيا فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الغزو الصليبى للبلدان الاسلامية • فلقد جعل هذا النظام الاقطاعى مسئولية الاعداد الحربى بالرجال والسلاح والعتاد والمؤن مسئولية يشترك فيها رجال الدولة كبارهم وصغارهم ويشمل هذا • السلطان وكبار قواد الجيش والأسطول وأمراء البيت الأيوبى وأمراء الجند والجند أنفسهم ومن وراءهم من الفلاحين والزراع والصنّاع الذين يوفرون المؤن والغلال والاغذية للقوات المحاربة •

وكذلك كان هذا النظام الاقطاعى نمطا اقتصاديا يمثل موردا أساسيا من موارد الدخل للدولة الأيوبية بما كان يؤديه أصحاب الاقطاعات من خراج وضرائب ورسوم زراعية وغير زراعية وما يوفّرونه للدولة والسلطان والجيش من غلال وخيول وما الى ذلك •

وكذلك كان النظام الاقطاعى الايوبى فى بعض نواحيه أداة من أدوات الادارة وسياسة الحكم فى الدولة • فقد كان على أصحاب الاقطاعات أن يلتزموا بالوفاء والاخلاص للسلطان ويقوموا بتنفيذ أوامره وكأنهم كانوا أصحاب مناصب

ادارية فى أقاليمهم ، وكذلك كانوا هم المسئولين بصفة مباشرة عن الأمن وشئون الزراعة وغيرها فى تلك الأقاليم .

وعلى الجملة كان هذا النظام اقتصاديا واداريا وسياسيا وحربيا ،وان كان الأساس فى قيامه هو الجانب العسكرى .

وهذا البحث يتكون من أربعة فصول :

الفصل الأول يتناول الأصول التاريخية لنظام الاقطاع الحربى ، وفيه تعريف لغوى واصطلاحى لكلمة " الاقطاع " ، ثم عرض لبداية ما عرف فى الاسلام من الاقطاع فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى أرض الجزيرة العربية وفى خارجها ، وتعريف أنواع الاقطاع وتقسيمه الى اقطاع تمليك واقطاع استغلال ، ثم ما كان من اقطاع فى عهد الخلفاء الراشدين فى البلاد المفتوحة ، ثم ما حدث من اقطاع فى العصر الأموى وما صحبه من استصلاح للاراضى البور ، وما فعله عمر بن عبد العزيز من ردّ القطائع التى ورثها عن آبائه الى بيت المال .

وينتقل الفصل بعد ذلك الى الاقطاع فى العصر العباسى . وقد تبيّن انه قام على الأصول الاسلامية السابقة ، ولم يتأثر بنظم الاقطاع الساسانى فى فارس قبل الفتح الاسلامى ، ويذكر الفصل الآراء الفقهية فى الاقطاع

واسترجاع بنى العباس لأنواع الاقطاع التى تخالف آراء الفقهاء • وبيّن الفصل أن اقطاعات العصر العباسى قد اتسعت وصار الاقطاع بديلا عن المرتبات التى تصرف الى العاملين فى الحكومة من مدنيين وعسكريين •

وانتقل الفصل بعد ذلك الى الاقطاع فى الدويلات التى قامت فى فترة لاحقة من عهد الدولة العباسية وبدأت ببنى بويه ، وقد أخذ هؤلاء بنظام الاقطاع الذى يمنح فيه القادة العسكريون والجند اقطاعات بدلا من العطاء • ثم اتسع هذا النظام فشمل الوزراء وكبار الموظفين المدنيين ليكون الاقطاع بدلا من المرتب • وكانت الاقطاعات من اختصاص ديوان الجيش • وكانت مهمته تحديد خراج الاقطاع وخصائصه ومداه واعادة توزيع الاقطاعات •

ثم أخذ السلاجقة بمبدأ الاقطاع الحربى عن البويهيين وتوسعوا فيه ، فقد وجدوا انه يساعد فى توفير النفقات الحربية ويخفف عن خزانة الدولة • وروعى فى الاقطاع ألا يكون مجتمعا فى اقليم واحد لئلا تنشأ اخطار على السلطة المركزية • ولم يكن الاقطاع السلجوقى اقطاع تمليك ولم يكن وراثيا •

وقد كان من أسباب قيام هذا الاقطاع اتساع رقعة الدولة ، وصعوبة السيطرة عليها ، وكثرة النفقات المالية • ومن نتائجه تحدّد النشاط الحربى لدى كثير من أمراء السلاجقة وعرض الفصل من بعد ذلك للاقطاع الزنكى ونشأته • وتبيّن أن الدولة الزنكية أخذت نظام الاقطاع السلجوقى وأضافت اليه مبدأ وراثة

الاقطاع بعد وفاة صاحبه . وقد كان للاقطاع الزنكى دور مهم فى تشجيع الجند ودفعهم الى القتال ، والاستبسال فيه بسبب الأخذ بهذا المبدأ .

وأشار الفصل الى اتصال الايوبيين الاوائل بالدولة الأتابكية الزنكية وكان لهم اقطاعات منها ، ولذلك وجدنا الدولة الأيوبية تتبع سياسة الاقطاع الحربى كما عرف فى الدولة الزنكية مع التخلى عن مبدأ التوريث . وأشار الفصل كذلك الى أن الأيوبيين فى بداية عهدهم فى مصر وجدوا نظاما للاقطاع معمولا به فى الدولة الفاطمية ،فجعلوه بداية انطلقوا منها الى نظامهم الاقطاعى فيما بعد .

وفى الفصل الثانى عرض لقيام الدولة الأيوبية وصلة صلاح الدين وأبيه وعمه بالدولة الزنكية ، وقد تبيّن أن الأيوبيين قد عملوا على صبغ دولتهم بالصبغة العسكرية التى سادت الدول السابقة البويهية والسلجوقية والزنكية بسبب الجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين .

وبيّن الفصل أن نظام الاقطاع فى الدولة الايوبية قد قام على أساس من نظام الاقطاع فى الدولة الزنكية وهو أن الاقطاع فى مقابل الخدمة بالدولة وقد ظلّ النظام معمولا به فى زمن صلاح الدين وامتدّ الى عهود خلفائه من بنى أيوب فى صورة نوعين من الاقطاع :

الأول هو الاقطاع الادارى وقد اختصّ به أمراء بنى أيوب وكبار الموظفين ·

والآخر هو الاقطاع الحربى الذى عرف عند السلجوقيين والزنكيين ، وكان

مرتبطا بما يؤديه صاحب الاقطاع من خدمات عسكرية ، وكان خاضعا لسيطرة

الحكومة المركزية ، ولم يكن وراثيا ، ولم يكن يمنح لمدى الحياة ·

وإذا كان اساس نظام الاقطاع الايوبى هو نظام الاقطاع الزنكى الا أنه صلاح الدين اعتمد أيضا

~~وقد اعتمد صلاح الدين فى اقامة نظام الاقطاع الأيوبى~~ على نظام الاقطاع

الفاطمى الذى كان قائما فى مصر من قبل ، ولكنه لم يكن عسكريا ، وقد استفاد

منه صلاح الدين وأضاف اليه بعض التعديلات بعدم اخضاعه لنظام العشر ،

وجعله اقطاعا عسكريا كما كان الاقطاع فى الدولة الزنكية وألغى منه نظام توريث

الاقطاع ، ولم يكن لصاحب الاقطاع استقلال ذاتى غير عادى كما كان الشأن

فى النظام الزنكى ·

وقد جرت فى الفصل مقارنة بين الاقطاع الايوبى والاقطاع الاوربى فى

العصور الوسطى ، واتضح أن اقطاع الأيوبيين لم يكن مأخوذا من الاقطاع

الأوربى ولا متأثرا به ، ولذلك كانت الأحوال والنتائج فى كلا المجتمعين

مختلفة ·

وتعرض هذا الفصل أيضا لعملية توزيع الاقطاعات الحربية منذ تولى صلاح

الدين الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى ، ثم اعادة توزيعها بعد الـروك

الصلاحى وهو مسح الأرض الزراعية فى مصر بعد توليه الحكم .

وتناول الفصل بعد ذلك الاقطاع الحربى فى عهود خلفاء صلاح الدين وعرض للخدمات العسكرية المفروضة على أصحاب الاقطاعات من تكوين الفرق الحربية وتزويدها بالسلاح والمؤن واهتمام صلاح الدين بضبط هذه الأمور ومراجعة أصحاب الاقطاعات ومتابعة تجهيز الجند فقد كان الجهاد الاسلامى سمة واضحة فى هذا العصر وكان هو الدافع الى قيام الاقطاع العسكرى الذى يلتزم فيه صاحب الاقطاع باعداد فرقة عسكرية لقتال الصليبيين ، وقد كان الاخلال بهذا الواجب يؤدى الى أن يسترد السلطان الاقطاع من صاحبه ، وكذلك لو أن الفرقة التى يرأسها فرّت من الميدان أو انهزمت .

وكان بعض الاقطاعات يمنح لزعماء القبائل العربية فى مصر نظير قيامهم بحراسة الطرق الرئيسية ومراقبتها ، والمعاونة فى أداء بعض المهمات للسلطان وللجيش وكان الهدف من ذلك اشراكهم فى الجهاد وضمان المحافظة على الأمن ، ثم انتقل الفصل الى بيان الخدمات المدنية فى الاقطاع الأيوبى ، وقد كان من أهمها تنفيذ المراسيم السلطانية التى يصدرها السلطان الأيوبى ، واقرار الأمن والنظر فى مصالح الرعية فى داخل الاقطاع ، ومتابعة أعمال الزراعة والرى وتوزيع البذور على الزراع والاشراف على جمع المحصولات والعناية بالجسور والقنوات وجمع الضرائب ، وبيّن الفصل الوظائف المدنية فى الاقطاع ، ومن

يتولاها ثم عرض ، بالتفصيل للضرائب والرسوم الاقطاعية ، وبيّن ما هو خاص بالسلطان وبالدولة ، وما هو خاصّ بصاحب الاقطاع لنفسه وللانفاق على جنده ، وعلى مطالب الاقطاع الخاصة بالزراعة والرى وغير ذلك .

ثم انتقل الفصل بعد ذلك الى بيان مسئولية حفظ الأمن فى الاقطاع ومن يتولى هذه المهمة لمعاونة صاحب الاقطاع . ومن كان يتولى مهمة مراقبة النهر والترع وصيانة قنوات الرى وشئون الفلاحين .

ولقد كان استخلاص هذه المواد من بين المادة التاريخية المتراكمة التى عالجت حركة الجهاد الاسلامى ضد الخطر الصليبى أمرا صعبا وشاقا ، فلقد كانت متناثرة ومعروضة فى الثنايا دون تركيز كبير وكأنما وردت عرضا بغير أن يقصد الى ذلك المؤلفون والمؤرخون فى كثير من الأحيان .

وعرض الفصل الثالث لحقوق المقطع فى العصر الايوبى وقد بيّن أنه قد كان من حقوقه أن يجمع لنفسه ولجنده قدرا محددا من الضرائب وله أن يتنازل عن الاقطاع الممنوح له وكانت للمقطع سلطات واسعة على الفلاحين فى اقطاعه ، فكان له أن يعاقبهم بالاسلوب الذى يراه ، ونتج من هذه السلطات الواسعة أن كثيرا من أصحاب الاقطاعات أساءوا استخدامها فكانوا يكلفون الفلاحين بتقديم ما يطلبه السلطان من أصحاب الاقطاعات من خدمات وما الى ذلك . ومع أن أحوال الرخاء والشدة فى مصر فى تلك الفترة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمقدار فيضان

النيل وتوفر المياه للزراعة فان الفلاحين كانوا يعانون بصورة مستمرة من كثرة الالتزامات والضرائب التى كان أصحاب الاقطاعات يفرضونها عليهم ويلزمونهم بها • ولكن الدولة الايوبية كانت حريصة على الا تسوء حال الفلاحين بسبب سوء استغلال أصحاب الاقطاعات لهم فقد خلت بفرض قيمة محددة لايجارات الأرض الزراعية ووضعت قيودا على أصحاب الاقطاعات فى جمع الضرائب ، وكان التوقيع الخاص بالاقطاع ينصّ على ضرورة التزام المقطع بحسن رعاية أهل الاقطاع [illegible] العدالة لهم ، والوصية بحسن الجوار مع أصحاب الاقطاعات المجاورة • وبسبب القيود التى وضعتها الدولة الايوبية على الاقطاعيين تحققت فى كثير من الأحوال راحة الفلاحين وتفرغوا لاستثمار الارض فزاد دخل المقطعين وأتيحت لهم الفرصة الكاملة للقيام بدورهم الحربى •

وبيّن الفصل أن أصحاب الاقطاعات من الامراء ذوى الرتب لم يكونوا يقيمون فى اقطاعاتهم بل كانوا يقيمون بالعاصمة أو حيثما كان السلطان •

وتعرّض الفصل لبيان متحصلات الاقطاع من محصولات زراعية ورسوم وضرائب كانت تمثل المورد الدائم للانفاق على الجيش والاسطول وبيّن أن صلاح الدين بعد توليّه الحكم فى مصر أبقى بعض الضرائب التى كانت الخلافة الفاطمية قد فرضتها مع تعديلها • ولكنه اعتمد بصفة رئيسية على الاقطاع الحربى لارتباطه بالخراج السنوى للارض ، وبذلك كان المزارعون يؤدون الخراج والرسوم والضرائب الى المقطع

ليؤديها الى خزانة الدولة بعد أن يستقطع منها المصروفات والنفقات الخاصة له ولجنده ٠

وبيّن الفصل ما كان يؤدى من الخراج فى صورة محصولات زراعية وبصفة خاصة من الوجه القبلى فكان يؤخذ من القمح والشعير والعدس والحمص والفول وغير ذلك من المحصولات الزراعية مقدار معين ٠

وعرض الفصل لسببين تأثرت بهما الضريبة الخراجية زمن صلاح الدين وهما :

تحويل السنة الخراجية الشمسية الى سنة هلالية ، واجراء مسح جديد للأرض الزراعية وهو ما عرف باسم الروك الصلاحى ، فقد جرى بعده تعديل فى مقدار الخراج ، وسمح بأداء البقول بدلا من القمح بمقادير معلومة ٠ وعرض الفصل أيضا للضرائب المقررة على الأرض الزراعية وكانت تؤخذ عينا أو نقدا من ذلك ضرائب القمح والشعير والفاكهة والكروم وغابات أشجار السنط التى كانت أخشابها تستخدم فى بناء السفن والقلاع والحصون ، وكان يفرض على أهالى النواحى التى تنمو فيها ضرائب فى نظير انتفاعهم بأخشابها فى انشاء الطواحين والسواقى وغير ذلك ٠

وذكر الفصل كذلك أن صلاح الدين الأيوبى خصّص ديوان الجيش للانفاق

على القوات البرية والحصون والقلاع والمدن العسكرية ، وخصص ديوان الأسطول للانفاق على القوات البحرية وما تشمله من السفن والجند والبحارة والأسلحة والمؤن وللانفاق على دور الصناعة .

وعرض الفصل لأنواع الضرائب المختلفة سوى الخراج كالجزية ، وأموال المواريث التى لا وارث لها ، ومتحصلات ديوان الاوقاف ودار الضرب والمكوس .

ووضّح الفصل للاجراءات التى كانت متّبعة فى تسجيل الأراضى وتوزيعها على الفلاحين ، وأنواع السجلّات والأوراق الرسمية التى تتضمن المعلومات المتعلقة بذلك .

وناقش الفصل كيفية التصرف فى الاقطاع بعد وفاة المقطع وما قيل من آراء فى هذا الشأن وانتهى الى أن الرأى القائل بتوريث الاقطاع رأى مرفوض ، وقدّم الأدلة على ذلك .

وفى الفصل الرابع عرض لكيفية توزيع الأراضى فى ظل النظام الأيوبى والتنظيمات والأسس التى قام عليها الاقطاع الحربى الأيوبى . وعرض الفصل لما كان متبعا من تشتيت أجزاء الاقطاع الممنوح فى جهات متباعدة ، وقد كان الغرض من هذه السياسة ضمان استمرار ولاء المقطعين وعدم اتاحة الفرصة لهم للتفكير فى محاولة الاستقلال أو العصيان حتى لقد شمل هذا اخوة صلاح الدين

أنفسهم .

وناقش الفصل الآثار السيئة التي نتجت من اتباع سياسة بعثرة الاقطاعات، وأهم تلك النتائج انخفاض عائدها أو ضياع معظمه بسبب كثرة النفقات .

وانتقل الفصل بعد ذلك الى توقيعات الاقطاع أى الوثائق الرسمية بمنح الاقطاعات وقد كان المتبع أن تصدر هذه التوقيعات عندما يتولى سلطان جديد ، أو بعد مسح الأراضى ، أو بعد وفاة أحد المقطعين أو تنازله عن اقطاعه وفى حالات أخرى .

وعرض الفصل لأنواع الوثائق التى تسجل الاقطاع وتثبته فى ديوان الجيش، وللمراحل التى تمر بها ، ومن ذلك : المثال والمربعة ، والمنشور ،وتسجيل براءة الاقطاع .

وتناول الفصل بعد ذلك أساليب التوقيعات السلطانية التى تمنح الاقطاعات بمقتضاها . وبين ما فيها من تنوع واختلاف تبعا لمكانة المقطع وصلته بالسلطان وما كان التوقيع يتضمنه من وصايا يوصى السلطان المقطع باتباعها فى سلوكه مع الاجناد التابعين له ومع مرؤوسيه ومع الفلاحين الذين يعملون فى الاقطاع ، كما يتضمن التوقيع وصف الاقطاع وتحديده .

ثم انتقل الفصل بعد ذلك الى تقيم الاقطاعات فى النظام الأيوبى وهو

ما عرف باسم " العبرة " ويعنى معدل ما يغله الاقطاع فى السنوات الخصيبة والسنوات المجدبة . وكانت الوحدة النقدية التى تقدر بها عبرة الاقطاع هى " الدينار الجيشى " وهو دينار اعتبارى أو اسمى غير حقيقى اى لم يكن هو الدينار المتداول ، وسمى جيشيا لأن استخدامه كان يجرى فى ديوان الجيش .

وكانت قيمة الدينار الجيشى نسبة تختلف باختلاف طبقات المجتمع الأيوبى ، وكان يدخل فى تحديده جانب من الدينار الذهبى وجانب من المحصولات الزراعية .

وتبين من مناقشة الآراء فى تحديد قيمة الدينار الجيشى أن من أسباب عدم امكان تحديدها ان الدينار الجيشى كان وحدة نقدية متقلبة تختلف من سنة الى اخرى ومن اقطاع الى آخر وبين طبقات المجتمع . وأن قيمة الدينار الذهبى المتداول كانت كذلك دائمة التقلب تبعا لارتفاع الأسعار وانخفاضها ، وكذلك كانت أسعار المواد الغذائية والحبوب بوجه خاص ، وهذا كان يعنى ارتفاع القدرة الشرائية للدينار الذهبى او انخفاضها ، وكان هذا أثره فى قيمة الدينار الجيشى .

وكان تقييم كل اقطاع يتم بعد مسح الاراضى الزراعية ، وقد فعل ذلك صلاح الدين بعد الروك الصلاحى ، فأعاد توزيع الاقطاعات وتحديد عبرة كل

اقطاع من أجل اقامة نظام مالى جديد فى مصر .

وكان يراعى عند تقدير العبرة مقدار زمام الاقطاع ومساحة الأرض الصالحة للزراعة فيه . ودرجة جودة الأرض وخصبها ، وما تغله من محصولات ، وما يتوفر فيها من مصادر المياه .

وقد ظهر فى نظام الاقطاع الأيوبى مصطلحات تتعلق بحسابات الاقطاعات مثل : الفواضل والتفاوت والنواقص ، وقد تناولها الفصل بالشرح والأمثلة .

ثم تناول الفصل بعد ذلك انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر ، وبيّن أن القاعدة العامة فى ذلك هى أن الانتقال لا يكون بطريق الوراثة وكان هذا الانتقال يحدث عند تولى سلطان جديد بصدور توقيعات جديدة بالاقطاعات ، وعند تنازل صاحب الاقطاع عنه ، أو بعد وفاته .

وكانت هناك حالات استبدال الاقطاع أو جزء منه ذكر منها فى الفصل عدد كاف ، ثم ذكر الفصل ما كان متبعا من اجراءات عند خروج المقطع القديم من اقطاعه ودخول المقطع الجديد من رفع اسم الأول من السجلات واثبات اسم الآخر ، والتزام الأول بروّ أرض قصب السكر ، والتزامه بألاّ ينقل معه الأتبان ولا البذور السلطانية ، وما كان متبعا من تسوية الحسابات بينهما .

ثم انتقل الفصل بعد ذلك الى دراسة مفصّلة لديوان الجيش ، فقد كان هو المختص بالاقطاعات ، فبيّن أقسامه واختصاصات كل قسم ٠

وتناول الأعمال المنوطة بديوان الاقطاع وهى المتعلقة بالأراضى الزراعية والمستصلحة والأراضى البور ، وما يروى من الأرض بمياه النيل ٠

ومن الأعمال المنوطة بديوان الاقطاع كذلك توزيع الاقطاعات ، والانفاق العام على الجيش والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والقلاع ، وتسجيل الاقطاعات وحصر أصحابها ، ودراسة حالات التفاوت فى الاقطاع والفواضل والمتوفر وهذه كلها أمور مالية ٠

وكان عمل ديوان الجيش يتم برياسة ناظر الجيش ومساعدة عدد من كبار الموظفين منهم صاحب ديوان الجيش والكتبة والشهود ٠

وعرض الفصل فى نهايته لتنظيم ديوان المقطع فى الاقطاع ، فبيّن أنه كان يشرف على شئون الاقطاع ، وكان موظفوه يجمعون الضرائب ، ويحافظون على الأمن ، ويتابعون أعمال الزراعة والرى وغير ذلك ٠

وكان المسئول الرئيسى فى الاقطاع هو وكيل صاحب الاقطاع ، فقد كانت مسئوليته تتركز فى جمع العائدات المالية للاقطاع وتسجيلها وارسال نسخة من هذا السجل الى الديوان السلطانى ، وكان الوكيل هو حلقة الاتصال بين المقطع

والفلاحين ، وكان ينوب عنه فى الديوان السلطانى وخاصة فى المسائل المتعلقة بالضرائب والخدمات المطلوبة من المقطع .

وعرض الفصل لأهم الوظائف فى الاقطاع كوظائف : المشدّ ، وخولى البحر ، والخفراء ، وأرباب الدرك ، والمشرف على أوقاف القرية ، وحارس النهر .

وختم الفصل ببيان أن كل تلك التنظيمات فى ديوان الجيش ودواوين أصحاب الاقطاعات كانت تستهدف تحقيق الغرض الأساسى من الاقطاع الحربى الأيوبى ، فقد كان بديلا للرواتب ، وكان وسيلة لاشراك الأمراء أصحاب الاقطاعات فى مسئولية اعداد القوات المقاتلة وتجهيزها للجهاد ضد أعداء الاسلام فى تلك الفترة .

وفى خاتمة الرسالة وضحت أهم النتائج التى أسفر عنها البحث .

ولم يفتنى أن أزود الرسالة ببعض الملاحق التى تمثل وثائق هامة لا يمكن أغفالها .

وأخيرا ، فاننى أتقدم بخالص الشكر لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور محمد عبد العال احمد على ما منحنى من وقته وجهده وعلمه ومنهجه ، فلم

يبخل عليّ بشيء ، فكان لاشرافه العلمى وتوجيهاته الدقيقة ونصائحه الدائمة الأثر الكبير فيما وصل اليه هذا البحث ، الذى ظهرت بصماته واضحة فيه . فجزاه الله عنى خير الجزاء .

كما أشكر الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع ـ أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة فهو المشرف السابق على هذه الرسالة وكان له فضل اختيارى هذا الموضوع الهام ، ووجهنى الى العديد من المصادر والمراجع وأمدنى بعدد منها ولم يبخل عليّ طيلة مراحل البحث بعلمه وبخبرته ، ولم ينته اتصالى به بعد انتهاء اعارته بل ظل يشجعنى ويساعدنى كلما تم اتصال بينى وبينه ، فله منى خالص الشكر .

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنى وشجعنى من أساتذتى الكرام والمسئولين بالمكتبات وهم كثيرون يضيق المجال بذكرهم والاشادة بفضلهم ، فلهم منى خالص الشكر .

وبالله التوفيق . ،،

الفصل الأول

أصول الإقطاع الحربي

الاقطاع فى اللغة هو المنح والاباحة .

وقد ذكر تعبير " أقطع الاقطاع " فى مصادر ومراجع مختلفة ، منها ما جاء فى لسان العرب : " أقطعه نهرا ، أى : أباحه له ، واستقطعه اياها ، أى : سأله أن يقطعها له "[(١)] .

" ويقال : اقتطع طائفة من الشئ ، أى أخذها . والقطيعة : ما اقتطعه منه . وأقطعنى اياها ، أى : أذن لى فى اقتطاعها "[(٢)] . " وأقطع فلانا أرضا ، أى : ملكه اياها "[(٣)] .

والاقطاع اصطلاحا ، أن يقطع السلطان واحدا من أمرائه أرضا ، فيصبح - بحكم الاقطاع - له رقبتها ، وتلك هى التى تسمى قطائع[(٤)] .

أولا : الاقطاع الاسلامى فى عصر الرسول والخلفاء :

ارتبط الاقطاع الحربى فى العصر الأيوبى بالنظام الحربى لتلك الدولة ، فمن المعروف أن نظام الحكم فى الدولة الاسلامية قام على

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ق ط ع) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٥ - ٩٦

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط : مادة ق ط ع ، ج ٢ ص ٧٥١ .

(٤) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٣٩ .
أحمد خياط : الاقطاع في الدولة الاسلامية ٥١ . رسالة ماجستير - لم تطبع - جامعة أم القرى .

عدة أسس ، لكل منها قواعده ومميزاته . وأهم تلك النظم خمسة :

السياسى ، والادارى ، والمالى ، والحربى ، والقضائى .

ويهمنا التركيز على النظامين المالى والحربى ، لأن كلا منهما يعدّ من أهم ركائز الدولة الاسلامية ، وعليهما - بوجه خاص - يعتمد نظام الاقطاع الحربى .

وقد عرفت الدولة الاسلامية نظام الاقطاع منذ ظهورها ، وأشارت المصادر الى عدد من الأمثلة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين (١) . كما أشار المقريزى الى أمثلة أخرى فى العهدين الأموى والعباسى ، وبخاصة فيما يتعلق باقطاع بعض النواحى من أرض مصر لبعض خواصهم على أساس أن " يكون مال خراج مصر ، يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل ما يفضل الى بيت المال ، وما أقطع من الأراضى فانه بيد من أقطعه " (٢) .

ولقد كانت جميع أراضى مصر منذ ولاية صلاح الدين الى عصر المقريزى اقطاعا للسلطان وأمرائه وأجناده (٣) . وذكر الماوردى أن الاقطاع مختص بما جاز

---

(١) أنظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ج ١ ص ٣٤ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٩٠ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٠٥ ، محمد عبد العال احمد : الاقطاع فى فجر الاسلام ، أحكامه ونشأته . بحث بكتاب ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٧ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

فيه تصرف السلطان ، ولا يصح فيما تعين فيه مالكه وتميز مستحقه (١) ، أى أن ولى الأمر — سواء أكان خليفة أم كان سلطانا — هو صاحب الحق فى منح الاقطاع

وقسم الماوردى الاقطاع وجعله على ضربين : اقطاع استغلال ، واقطاع تمليك (٢) .

وعلى أنه لا يصح الاقطاع فى الأراضى دون تمييز ، لأن منها ما يصح اقطاعه ، وهو الأرض التى ليست ملكا لأحد ، أو لا يعرف لها مالك ، والدليل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عادى الأرض لله ولرسوله ، ثم هى لكم من بعدى ، فمن أحيا شيئا من موات الأرض فله رقبتها (٣) ،

أما اقطاع التمليك فهو على ثلاثة أقسام : موات ، وعامر ، ومعادن .

فالموات كما ذكرنا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى الأرض التى لم يسبق زراعتها .

والقسم الثانى ما كان عامرا فخرب ، وهو على ضربين :

الاول : ما كان جاهليا ، كأرض عاد وثمود ، فيجوز اقطاعه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عادى الارض لله ولرسوله

---

(١) الاحكام السلطانية : ص ١٧١ — ١٨٢ ، وأنظر المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) الاحكام السلطانية : ص ١٧١ — ١٨٢ ، محمد عبد العال احمد : الاقطاع فى فجر الاسلام .

(٣) أبو داود : السنن ج ٤ ص ٢٦٦ ، أبو عبيدة : الأموال رقم ٧٠١ ص ٢٨٦ ورواه البيهقى ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع

ثم هى لكم من بعدى "[1] .

الثانى : هو ما تملكه بعض الناس فى الاسلام ثم صار مواتا .

وقد اختلف فيه الفقهاء[2] .

وأما اقطاع الاستغلال فهو نوعان : عشر ، وخراج . فالعشر لا يجوز اقطاعه لأنه زكاة لأصناف يعتبر وصف استحقاقها عند دفعها اليهم ، وقد يجوز ألا يكونوا من أهلها وقت استحقاقها ، لأنها تجب بشروط يجوز ألا توجد فلا تجب[3] .

وأما الخراج ، فقد ذهب الماوردى الى أن من الأرض التى لا يصح أن يقع عليها الاقطاع أرض الخراج : وقد اشترط أن يكون أهلها من مرتزقة أهل الفئ وفرضية الديوان وهم أهل الجيش . وهم أخص الناس بجواز الاقطاع لأنه يصير لهم أرزاقا تصرف اليهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا له أنفسهم من حماية البيضة والذب عن الحريم ، فاذا صح أن يكونوا من أهل الاقطاع روعى حينئذ مال الخراج "[4] . غير أنه وضح أنه لا يجوز اقطاعهم أكثر من سنة .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية : ص ٩٠ ، محمد عبد العال احمد : الاقطاع فى فجر الاسلام .

(٢) المصدر السابق ص ٩١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩٥ .

وقد سبقت الاشارة الى أن اقطاع الاستغلال هو ما لم يزل مواتا من الأرض من قديم ولم يصلحه أحد ، وهذا يجوز اقطاعه استنادا الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لعرق ظالم حق " (١) .

أما اقطاعات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهى كثيرة سواء فى مناطق الجزيرة وفى خارجها (٢) . ويجدر بنا أن نحدد مكان اقطاعاته صلى الله عليه وسلم .

فأولها فى المدينة المنورة بحكم أن بداية دولته فيها ، ولذلك فان معظم اقطاعاته بها ، فقد أقطع الزبير بن العوام (٣) ركض فرسه من موات البقيع ، فأجرى فرسه ثم رمى بسوطه رغبة فى الزيادة فقال الرسول : " اعطوه حيث بلغ السوط " (٤) . وأقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم غيرها (٥) .

ولم يكن الزبير وحده هو الذى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل أقطع غيره من الصحابة كذلك . وان حظى الزبير بنصيب أوفر .

---

(١) السيوطى : الجامع الصغير ج ١ ص ١٦١ ، محمد عبد العال احمد : الاقطاع فى فجر الاسلام .

(٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٠٠ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٠٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٦ ، أبو عبيده : الاموال : حاشية (٢) ص ٢٧٣ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ٣٤ ، ٣٨ ، الصولى : أدب الكتاب ص ٢١١ .

وقد شملت اقطاعات الرسول صلى الله عليه وسلم كلا من : أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما (١) ، وقد منح على بن أبى طالب رضى الله عنه أربعة اقطاعات (٢) . وكذلك أقطع كلا من : سليط بن قيس بن عمر (٣) ، وبلال بن الحارث الذى أقطعه المعادن القبلية ، ولم يقطعه حق مسلم ، وحكم ذلك كما يقول الماوردى فيه قولان :

الاول : أنه اقطاع تمليك يصبح به المقطع مالكا رقبة المعدن يتصرف فيه فى حياته .

والقول الآخر : أنه اقطاع ارفاق ، لا يملك به رقبة المعدن ، ويملك به الارتفاق بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه . فان تركه زال حكمه عنه وأصبح مباحا (٤) .

ويعدّ هذا نوعا جديدا من الاقطاعات وهو اقطاع المعادن الباطنة والظاهرة (٥) .

وكذلك أقطع الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف .

أما اقطاعاته صلى الله عليه وسلم خارج نطاق المدينة فكثيرة ، بعضها فى

---

(١) أبو يوسف : الخراج ، فصل فى القطائع ص ٧٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٤ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٥١٢ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩٨ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع

(٥) الماوردى : نفس المصدر والصفحة .

جزيرة العرب وبعضها فى خارجها ، ففى مكة المكرمة كان اقطاع عتبة بن فرقد ليبنى له مسكنا (١) ، وكان اقطاع حمزة بن النعمان العذرى بمقدار رمية سهم (٢) .

وأما اقطاعاته صلى الله عليه وسلم فى نجد وما جاورها فانه أقطع فرات ابن حيان العجلى بعد أن أسلم وحسن اسلامه أرضا باليمامة (٣) . كما أقطع جماعة من بن مرارة الاسلمى (٤) ، وحصين بن فضلة الاسدى (٥) .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع أرض بنى سليم ، فأقطع منها بعض الصحابة ومنهم الزبير بن العوام ، وخصّ بنى سليم بقسط كبير منها . وكتب لحرام بن عوف من بنى سليم أنه أعطاه أراما (٦) ، لا يحاقه فيها أحد (٧) .

كما حظى جماعة من بنى سليم كانوا قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض عرفت بالدفينة (٨) .

---

(١) أبو عبيدة : الاموال رقم ٦٨٦ ص ٢٧٦ ، ابن حجر العسقلانى ، الاصابة جـ ٢ ص ٤٤٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٤ ص ٢٧٥ .

(٢) ابن الاثير: أسد الغابة جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) أبو عبيدة : الاموال رقم ٦٧٨ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن حجر : الاصابة جـ ٣ ص ٣٤٣ .

(٥) ابن حجر : الاصابة جـ ١ ص ٣٣٨ ، البرهان الفورى : كنز العمال جـ ٣ ص ٩١٨ .

(٦) أراما : جبل يقع فى بلاد بنى سليم . أما أداما فهو واد جنوب مكة بعيد عن بلاد بنى سليم .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٧٤ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع.

(٨) ابن عبد البر : الاستيعاب جـ ١ ص ٥١٧ ، ٥١٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٧٦ .

كما أقطع بنى شيخ من جهينه أرضا وكتب لهم بها كتابا (١) . وأقطع ملح مأرب للابيض بن جمال ، ثم استرده منه عند ما علم أنه مثل الماء العدّ (٢) .

من هذا يتضح انتشار الاقطاعات فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أنحاء الجزيرة ، فى مكة والمدينة واليمامة ونجد ، حتى انه كان يقطع فى بلاد الشام والروم قبل أن يتم فتحها ، فقد أقطع تميما الدارى (٣) أرضا بالشام قبل فتحها . وجعلها نفلا من أموال أهل الحرب (٤) . كما أقطع أبا ثعلبة الخشنى أرضا كانت بيد الروم على سبيل النفل كذلك (٥) .

وأما عن اقطاعاته صلى الله عليه وسلم فى بعض الأراضى التى كانت خاضعة للدولة الساسانية ، فقد أقطع حريم بن أوس بن حارث الطائى (٦) " اذ قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ان فتح الله عليك الحيرة فأعطنى بنت نفيلة (٧) "

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : جـ ١ ص ٢٧١ .

(٢) أبو عبيده : الاموال ص ٢٧٥ رقم ٦٨٣ ، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٦ ،
الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩١ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع .

(٣) هو تميم بن أوس بن حارثة الدارى : كان نصرانيا ثم أسلم بعد أن قدم الى المدينة . أنظر : ابن حجر : الاصابة جـ ١ ص ١٨٦ .

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩١ ، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٧ ، محمد عبد العال : نفس المرجع .

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب جـ ٤ ص ٢٨ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٩٢ ، أبو عبيدة : الاموال ص ٢٧٤ رقم ٦٧٩ .

(٦) ذكر ابن حجر حزيم بن أوس بن حارثة الطائى ، وأغلب كتب التراجم لم تذكر اسم حريم . أنظر : ابن حجر : الاصابة جـ ١ ص ٣١٧ .

(٧) بنت نفيلة : قرية بالحيرة . أنظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٩٥ .

فوهبها لـه •

وقد سار الخلفاء الراشدون على سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أقطع أبو بكر الصديق رضى الله عنه طلحة بن عبيد الله أرضا[1] ، وكتب له بها كتابا وأشهد له ناسا فيهم عمر ، فلما توجه طلحة الى عمر بالكتاب ليختم عليه رفض عمر وقال : أهذا كله لك دون الناس ! فغضب طلحة ورجع الى الخليفة وقال له: "والله ما أدرى ، أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : بل عمر ، ولكنه أبى[2] • "

ومما يذكر أن الخليفة — مع أنه كتب كتاب الاقطاع — قد وضع الضوابط التى تحكم الأمور فى هذا المجال ، وجعل اشهاد الشهود شرطا لسريان كتابه ولم يجد فى ذلك ما يقلل من قدره • بل لقد احترم الشورى وأخذ برأى عمر[3] •

وقد تكرر هذا الموقف حين أقطع أبو بكر رضى الله عنه اقطاعا مشابها لعيينة بن حصن ، ولم يكتف عمر بالامتناع عن الاشهاد ، بل محى الكتاب •

واقطع أبو بكر أيضا اقطاعا للزبير بن العوام ، ويبدو أنه لم يعترض أحد على ذلك •

واستمرت الاقطاعات فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقسم أرض

---

(١) ابن حجر : الاصابة جـ ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ ، محمد عبد العال : نفس المرجع •

(٢) أبو عبيدة : الاموال ص ٢٧٦ رقم ٦٨٥ •

(٣) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع •

العقيق اقطاعات للصحابة (١)، وأخذ يقطع منها حتى لم يجد من يقطعه، وقال : " أين المستقطعون ؟ ما أقطعت اليوم أجود من هذه ! " (٢)، وأقطع عمر ابن الخطاب أرضا مواتا لخوات بن جبير الأنصارى (٣). وأقطع ينبع لعلى بن أبى طالب (٤).

والى جانب هذا أقطع عمر اقطاعات فى كل من : العراق ومصر، ففى العراق أقطع مخرم بن شريح بن كعب (٥) أرضا زراعية واسعة سميت باسمه (٦). وأقطع وأقطع أبا مفرز (٧) موضعا بمصر يعرف باسم دار النيل (٨). وأقطع ابن سندر الأرض المعروفة باسم منية الأصبغ (٩).

---

(١) العقيق عقيق المدينة، وهو من بلاد مزينة، وبالجزيرة عدة أعقة. أنظر النجدى : صحيح الأخبار ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٤٧٧، البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٢، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٢ .

(٤) يحيى بن آدم : الخراج ص ٧٣، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع .

(٥) هو مخرم بن شريح بن كعب بن شريح بن مخرم بن زياد بن مالك . أنظر : الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٦ .

(٦) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٥ـ٩٦ .

(٧) ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ١٩٢ .

(٨) موضع فى مصر ملئ بالزروع والأشجار .

(٩) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع، وقرية منية الاصبغ تقع شرقى مصر. أنظر، ياقوت : معجم البلدان، ج ٥ ص ٢١٨ .

وقد ذكر ابن عبد الحكم "فتوح مصر" ص ١٣٥ أن منية الأصبغ نسبة الى الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان، وكانت أرضا مما [illegible] أقطعها عمر بن الخطاب لابن سندر فلما مات صارت الى بيت المال، ثم أقطعها عبد العزيز بن مروان والى مصر [illegible] الأصبغ فأصبحت تعرف بمنية الأصبغ .

وهكذا يتضح أن اقطاعات عمر رضى الله عنه قد تجاوزت حدود الجزيرة العربية الى بلاد العراق ومصر وغيرهما .

ولما تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة أخذ هو أيضا يقطع الاقطاعات اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتين قبله ، فأقطع العباس بن ربيعة بن الحارث (١) دارا بالبصرة ، وأقطع كلا من : خباب بن الأرت (٢) ، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد (٣) والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله (٤) وعبدالله بن مسعود (٥) ، وعمار ابن ياسر (٦) ، كما أقطع صنعاء (٧) لخباب وهرمزان لسعد بن مالك (٨) .

---

(١) العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أنظر : ابن حجر : الاصابة جـ ١ ص ٤٩٥ .

(٢) خباب بن الارت مولى عتبة بن غزوان يكنى أبا يحيى ، ذكره ابن اسحق فيمن شهد بدرا . أنظر : ابن حجر : الاصابة جـ ١ ص ٤١٧ .

(٣) سعيد بن زيد بن عمرو بن نوفيل بن عدى بن كعب القرشى العدوى . أنظر : ابن الاثير : أسد الغابة جـ ٢ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان جـ ٣ ص ٧٨٦ ، محمد عبدالعال احمد : نفس المرجع

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب جـ ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ، البلاذرى : فتوح البلدان جـ ٣ ص ٣٢٥ .

(٦) عمار بن ياسر بن مالك العنسى شهد بدرا وهو من كبار الصحابة . ابن عبد البر : الاستيعاب جـ ٢ ص ٤٦٩ .

(٧) الاصح صعنبيا من سواد العراق كما ذكر البلاذرى جـ ٣ ص ٤٤ ، أما صنعاء فهى المعروفة باليمن .
أنظر : أبو يوسف : الخراج ص ٧٣ .

(٨) سعد بن مالك بن سنان مات سنة ٧٤هـ . ابن حجر : الاصابة جـ ٢ص ٣٣ .

وبسبب كثرة الاقطاعات فى عهد الخليفة عثمان قيل أن أول من أقطع القطائع عثمان ، ولم يقطع أبوبكر ولا عمر ولا على ، وان أول من أقطعها عثمان وبيعت الارضون " (١) .

وليس هناك ما يؤيد هذا القول ، ويبدو أن المقصود بذلك كثرة ما أقطعه عثمان بن عفان من الاقطاعات .

واما الاقطاعات التى منحها على بن أبى طالب رضى الله عنه فانها لم تكن كثيرة بسبب ما كان من أحداث الفتنة (٢) ، لهذا لم تمدنا المصادر الا بحالة واحدة ، فقد ذكر المقريزى أن عليا أقطع سويد بن غفلة اقطاعا وكتب له بذلك كتابا جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

هذا ما أقطع على أمير المؤمنين سويدا أرضا لدوابه ما بين كذا الى كذا ما شاء الله ، " (٣) .

ثانيا : الاقطاع فى العصر الأموى :

استمر العمل بنظام الاقطاع فى العصر الأموى ، وتوسع الأمويون فى منح الاقطاعات الى حد قيام معاوية بن أبى سفيان باقطاع أراضى

---

(١) البرهان الفورى : كنز العمال جـ ٣ ص ٩١٥ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق : المجلدة الاولى ص ٥٩٣ .
(٢) محمد عبدالعال احمد : نفس المرجع .
(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٩٧ .

الصوافي بحيث تصبح ملكا لمن أقطعت له (١) ، فيباشر العناية بها واستغلالها (٢) كما وضع معاوية يده على فدك (٣) ، وعدّها من الصوافي مخالفا بذلك من سبقوه (٤) ، وجعلها اقطاعا لمروان بن الحكم ، وورثها أبناؤه من بعده (٥) .

غير أنه يمكن القول ، ان حركة استصلاح الأراضي البور قد تمّ التوسع فيها ابتداء من العصر الاموي ، ولم يقتصر نشاط الاستصلاح على أبناء البيت الأموي وحدهم ، بل شاركهم غيرهم في ذلك .

ومما قام معاوية باستصلاحه بالاضافة الى أرض السواد : استصلاحه ضيعة بالبلقاء (٦) .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ابن عساكر: تاريخ دمشق جـ ٣ ص ١٨٤ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٣٥،٣٤،٣٩٦ ، ضياء الدين الريس: الخراج ص ١٧٨ .

(٣) الطبري : تاريخه جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ٣٠٦ .

(٤) لا يجوز اقطاع فدك عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " انما هي طعمة أطعمنيها الله في حياتي ، فاذا متّ فهي بين المسلمين "
البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٣٦ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٣٧ .

(٦) البلاذري : نفس المصدر جـ ٣ ص ٦٩٦ . والبلقاء كورة تقع الآن في المملكة الأردنية ، ومن أشهر مدنها السلط ومعان .

وشملت أعماله استصلاح كل من : البطائح (١) ، ووادى البطنان (٢) من كورة عسقلان ببلاد الشام (٣) .

وتعددت اقطاعات معاوية ، فمنها ما كان بأنطرطوس (٤) بعد فتحها ، كما أقطع عين صيد (٥) للحسن بن على بعد تنازله عن الخلافة له . وكذلك أقطع عبد الملك بن مروان الاقطاعات ، فمن اقطاعاته شهر العلا فى البصرة (٦) ونهر فكحول فى البصرة أيضا (٧) .

ومن بعده أقطع الوليد بن عبد الملك أخاه سعيد بن عبد الملك نهر سعيد (٨) ، ويبدو أن اقطاعاته كانت قليلة لقصر فترة حكمه .

---

(١) البطائح : تقع بين واسط والبصرة وكانت قديما متصلة وأرضا عامرة . ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٠ .

(٢) البطنان : اسم واد يقع فى بلاد الشام فيه أنهار ، وهو بين منبج وحلب. ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٤٧ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ١٢٢

(٤) انطرطوس : مدينة فى سوريا تعرف اليوم باسم طرطوس . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٠ .

(٥) عين صيد : تقع بالبطائح بين واسط والعراق . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٧٩ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢١ .

(٧) ياقوت : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٣٢٤ .

(٨) البلاذرى : فتوح البلدان : ج ١ ص ٢١٣ .

ومن اقطاعات يزيد بن عبد الملك ما قام باقطاعه لعمر بن هبيرة (١) فقد أقطعه مهلبان (٢) فنسبت اليه وعرفت بقطيعة ابن هبيرة (٣) . وكذلك أقطع دار الروميين (٤) لعنبسة ابن سعيد بن العاص (٥) .

وكان بعض الأمراء من أكبر الملاك فى عصرهم ، مثل مسلمة بن عبد الملك ، فقد استولى على أرض واسعة فى البطيحة فى مقابل انفاق ثلاثة ملايين درهم لاستصلاح بعض الأراضى فى السواد وحفر الأنهار (٦) . كما أقطع سليمان بن عبد الملك اقطاعا كبيرا ليزيد بن المهلب (٧) .

فلما كان عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قام بردّ جميع القطائع التى ورثها عن آبائه وقال : " ان أهلى أقطعونى ما لم يكن لى أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه (٨) " .

---

(١) عمر بن هبيرة الفزارى : كان من أهل الشام وولى العراق . أنظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

(٢) مهلبان : نهر يقع فى البصرة . البلاذرى : فتوح البلدان ج ٣ ص ٧٨٣ .

(٣) البلاذرى : نفس المصدر ج ٢ ص ٤٥١ .

(٤) دار الروميين : كانت مزبلة لأهل الكوفة : البلاذرى : نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٥) البلاذرى : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٦) البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٤٤ .

(٧) البلاذرى : نفس المصدر ص ٥١٧ ، عبد العزيز الدورى : نشأة الاقطاع فى المجتمعات الاسلامية ص ١٠ .

(٨) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤ .

~~وأعرض عن~~ كما أعاد القطائع التى أقطعها عثمان بن عفان لمعاوية بن أبى سفيان ، والقطائع التى أقطعها معاوية لعبد الملك بن مروان وأولاده .

هذا بخلاف ما قام باستعادته من الأراضى التى أقطعت بغير وجه حق مثل : فدك .[1]

ثالثا : الاقطاع فى العصر العباسى :

يعد نظام الاقطاع فى العصر العباسى نظاما مستمدا من الأصول الاسلامية السابقة وقائما عليها غير متأثر بأى شكل من الأشكال بنظم الاقطاع التى كانت فى فارس فى العهد الساسانى .[2] فقد ذكر أبو يوسف ، أن الامام له أن يقطع ، ويمنع الاقطاع مثلما منح الرسول صلى الله عليه و سلم من صوافيه فى كل من خيبر وبنى النضير وفدك . وما أقطعه للزبير بن العوام من أموال بنى النضير ، وكذلك ما قام به عمر بن الخطاب فى سواد العراق .[3]

وقد قام العباسيون باسترجاع الاقطاعات التى تخالف ما ذكره الفقهاء ، ولتنظيم هذا الأمر أنشىء ديوان عرف باسم " ديوان المرتجعات ".[4]

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلدة الأولى ص ٥٩٦

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٠٣٨ - ١٠٤٢ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ ، ٧٣ .

(٤) عريب القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٤٥ .

ومما يذكر أن ما تمّ اقطاعه فى العصر العباسى يختلف كثيرا عما كان عليه الحال فى العصر الأموى ، ففى عهد أبى جعفر المنصور العباسى " أقطع عمارة بن حمزه (١) ، الأرض التى سميت باسمه (٢) " . كما منح مولاه شبيلا (٣) اقطاعا ، واقطع احدى الموالى وتدعى أم عبيدة اقطاعا (٤) ، وأقطع احدى الوصيفات وتدعى ريانه موضعا يعرف بمسجد ابن فبان (٥) .

ويتضح مما أوردناه أن الاقطاع فى عصر الدولة العباسية — وخاصة فى العصر العباسى الأول — قد شمل معظم الفئات . أما فى العصر العباسى الثانى فقد اقتصر الاقطاع على الوزراء ، والقائمين بالخدمة المدنية ، والعسكريين . فكان اقطاع المدنيين تعويضا لهم عن رواتبهم ، وكان الاقطاع ينتهى بوفاة صاحبه .

وكان هناك اقطاع مخصص للوزراء عرف باسم " اقطاع الوزارة " ، وتقتصر الاستفادة به على فترة الوزارة ، ثم ينتقل الاقطاع الى من يتولى هذا المنصب

---

(١) عمارة بن حمزة بن ميمون من ولد عكرمة مولى ابن عباس : كاتب . الزركلى : الاعلام ، ج ٥ ص ١٩٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٣) هو مولى أبى جعفر المنصور ، لم يرد فى التراجم الا أن المنصور أقطعه قطيعة ثم بنى مسجدا باسمه .

(٤) البلاذرى : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٦٣ ، وأم عبيدة مولاة لمحمد بن على بن العباس وحاضنة لبنى العباس .

(٥) ريانة : احدى كبيرات وصيفات القصر فى عهد أبى جعفر المنصور . أنظر : البلاذرى : فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٦٣ .

بعد صاحبه[١] ، أى أنه اقطاع غير وراثى ، وهو بديل من الراتب ، بدليل ما ذكره الصابى من أن الوزير عبيد الله بن سليمان كان يتقاضى راتبا من بيت المال فى فترة وزارته ، فلما منح اقطاعا انقطع عنه الراتب[٢] .

وكان القادة العسكريون يمنحون الاقطاعات بدلا من الرواتب ، من ذلك أن الرشيد منح أحد قادته وهو عبد الملك بن صالح اقطاعا[٣] ، وأن المعتصم أقطع القائد التركى أشناس[٤] اقطاعا بالقرب من مشارف سامراء .

وتوسع العباسيون بعد ذلك فى منح الاقطاعات فى مقابل خدمات عسكرية كان العسكريون يقدمونها للدولة[٥] .

رابعا : الاقطاع عند السلاجقة :

بعد أن ازداد ضعف الدولة العباسية ، استقلت مناطق كثيرة عن سلطة الخلافة وأن أبقت على التبعية الاسمية لها .

---

(١) التنوخى : نشوار المحاضرة جـ ١ ص ١٣٧ ، عريب القريطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٣٥ .
(٢) الصابى : الوزراء ص ١٣ ـ ٢٧ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٤) أشناس : غلام زكى اشتراه المعتصم ، ورقاه لما ظهر من شجاعته . أنظر : الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٣ ص ٢٤٠ .
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٤٣٨ ، اليعقوبى : البلدان ص ١٨٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان جـ ٢ ص ٢٩٥ .

وقد ألقى ذلك الاستقلال عبء الدفاع عن تلك الدويلات على عاتق حكامها . ولذلك لم يجد هؤلاء الحكام بدا من الأخذ بنظام الاقطاع الحربى .

وكان بنو بويه من أوائل من أخذوا بهذا النظام (١) . فقد قام معزّ الدولة ابن بويه بتطبيق سياسة الاقطاع الحربى ومنح الاقطاعات لقادته وجنده بدلا من العطاء (٢) . ولم يكتف بتطبيق ذلك على العسكريين ، بل شمل الاقطاع وزراءه وخاصته وكبار موظفيه ليكون بدلا من العطاء . واستمر العمل بهذا النظام فى عهود خلفاء معزّ الدولة ، وشمل سعوانى الاقطاع الحربى ، فشمل الصوافى والأملاك الخاصة وأرض الخراج ، ولم يسلم من ذلك الوقف (٣) .

وقد منحت تلك الاقطاعات فى العصر البويهى بدلا من العطاء ، وتصرّف أصحابها فيها وكأنها ملك خالص لهم . ومما يذكر أنهم لم يكونوا يقيمون بها وانما تركوها لوكلائهم يديرونها بالنيابة عنهم (٤) ، مع أنها لم تكن وراثية ولا لمدى الحياة ، فقد كان فى استطاعة الأمير البويهى استعادتها متى شاء (٥) .

ومن الناحية التنظيمية كانت تلك الاقطاعات من اختصاص ديوان الجيش ،

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة الاقطاع فى المجتمعات الاسلامية ص ١٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٣) الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٧ ، ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ، ٣٦٢ .

(٤) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٩٧ ـ ٩٩ .

(٥) الصابى : تحفة الأمراء ص ٤٦٨ .

وكان من مهمته أن يتولى تحديد عبرة كل اقطاع وخصائصه ، ومن سلطاته اعادة توزيع تلك الاقطاعات (١) .

وقد أخذ السلاجقة بمبدأ الاقطاع عن البويهيين ، وتوسعوا فيه وعمموه من بعدهم (٢) ، فقد وجد الوزير السلجوقى نظام الملك " أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصحّ منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرّقها على الاجناد اقطاعا ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها (٣) " وبذلك ساعدت فى توفير النفقات الحربية .

ويمكن القول أن نظام الاقطاع السلجوقى — وان كان امتدادا للاقطاع البويهى — لم يكن صورة منه ، بل هو نظام استهدف تحقيق الأغراض التى أقيم من أجلها وهى المساهمة فى رد هجمات البيزنطيين على الدولة الإسلامية .

ولكى يقضى نظام الملك على ما قد ينشأ من مخاطر على السلطة المركزية اذا ما قوى نفوذ أصحاب الاقطاعات ، فلم يسمح بأن يكون الاقطاع الواحد كتلة متكاملة ، بل وزّعه فى مناطق متباعدة تجنبا لأن تنشأ عصبيات فى بعض المناطق تكون سببا فى تفتيت وحدة الدولة وانهيارها . وهذا يفسّر ما ذكره الاصفهانى من أنه " ربما قرّر لواحد من الجند ألف دينار فى السنة ، فوجّه نصفه على بلد من الروم

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة الاقطاع ص ١٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٥ ، ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢١ — ٢٣ .

(٣) الأصفهانى : دولة آل سلجوق ص ٥٥ .

(أى : من أملاك السلاجقة فى آسيا الصغرى) ونصفه على وجه فى أقصى خراسان.[1]

وهكذا نجد أن النظام الاقطاعى السلجوقى قد استهدف صبغ الدولة بصبغة عسكرية ، وقد أثمر ذلك النظام بما وضع له من ضوابط ، وأدى الى اتساع تلك الدولة.

وقد حددت الالتزامات الخاصة بالمقطعين ، اذ قرر عليهم : « خدما عن عصمة ولاياتهم يوصلونها ، وقرر معهم الحضور الى الخدمة وموالاة الخدمات للحضرة ، والوصول بالعساكر الجمّة ».[2]

ويوضح لنا كتاب « سياسة نامه » الطريقة التى استطاع بها نظام الملك اعادة النظر فى أموال الجند وتوزيعها عليهم ، فيقول : « يجب أن تعدّ للجند أموالهم فيتقرر لأهل الاقطاع منهم ما بأيديهم مطلقا ، أما الغلمان الذين لا اقطاع لهم فينبغى أن تعيّن أرزاقهم ، فاذا تبيّن مقدار ذلك وجب أن يعدّ لهم المال على وجهه لأنهم جنوده ، وأن يسلّموه فى حينه بحيث لا يحالون على الخزانه ، أو يتسلّمونه فى أماكنهم دون أن يروا السلطان ، والأولى أن يعطيهم السلطان أرزاقهم فى أيديهم فى حجورهم فيقع له فى قلوبهم المحبة من ذلك الاقطاع على أمره ، والتوفر على خدمته ، والاجتهاد فى المعارك ، والتفوق فيها ».[3]

ولم يكن الاقطاع السلجوقى اقطاع تمليك ، بل كان اقطاع استغلال ، فللمقطع

---

(١) الأصفهانى : دولة آل سلجوق ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) الأصفهانى : نفس المرجع والصفحة .

(٣) نظام الملك : سياسة نامة ص ٣٥ .

الاستفادة بخراج الأرض ، أى استغلالها ،وله حق الارتفاق ، واذا ورث الجندى أباه لم يكن الارث ارث تمليك ، بل هو ارث حق الاستغلال (١) . وكان من حق السلطان استعادة الاقطاع اذا قصّر المقطع فى الوفاء بالتزاماته ،أو أساء استخدام اقطاعه (٢) .

ولا شك فى أن الذى دفع نظام الملك الى منح الاقطاعات عوضا عن الرواتب انما هو اتساع رقعة الدولة ، وصعوبة الهيمنة عليها ، وارهاق الادارة المالية بالمرتبات الباهظة ، لذلك أقطعت الأراضى لمختلف طبقات الجند حتى صار الاقطاع الحربى فى الدولة السلجوقية هو القاعدة العامة .

وقد أدّى هذا النظام الى تجديد النشاط الحربى لدى كثير من أمراء السلاجقة ، اذ أقطعت لهم الاقطاعات ، وصار لهم بذلك النظام حق تكوين الفرق الحربية الخاصة وامتلاك ما يخضعونه من مناطق ، فتصير اقطاعا لهم بشرط المحافظة على الولاء للسلطان السلجوقى (٣) .

ومن الاقطاعات التى اختصّ بها أمراء البيت السلجوقى اقطاعات ألب أرسلان عقب أخذه العهد لولده ملكشاه سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م . فقد أقطع ابن عمه سليمان بن قتلمش آسيا الصغرى ، وأقطع أخاه سليمان بن داود أقليم

---

(١) ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٢ .

(٢) حسين أمين : العراق فى العصر السلجوقى ص ٢٠٧ .

(٣) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٣ .

بلخ ، واقطع أخاه أرسلان أرغون اقليم خوارزم ، كما أقطع غيرهم من أبناء البيت السلجوقى كثيرا من الاقطاعات بسبب موافقتهم على جعل ولاية العهد لملكشاه بعد أبيه ألب أرسلان (١) .

ولما تولى ملكشاه الحكم واصل سياسة منح أبناء البيت السلجوقى الاقطاعات ضمانا لاستمرار ولائهم له ، ففى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م . أقطع أخاه تاج الدولة تتش دمشق وأعمالها ، وحلب ، وغيرها من بلاد الشام . كما أقطع عمه سليمان آسيا الصغرى بالاضافة الى ما يفتحه كل منهما من البلاد (٢) . وأقطع محمد بن سلم بن قريش العقيلى — وهو من أبناء القبائل العربية التى أخلصت لسلاطين السلاجقة — اقطاعا كبيرا شمل الموصل . وحرّان والرحبة ، وأعمالها ، وسروج ، والرقّة ، والخابور (٣) .

وممن أقطعهم ملكشاه الاقطاعات الكبيرة الأمير بوزان ، أقطعه فى سنة ٤٧٧ هـ الرّها ، وحرّان ، وقلعة حلب (٤) ، كما أقر بنى منقذ على شيزر (٥) وكانت أنطاكية اقطاعا لياغى سيان ، وظلّ بها حتى زحف عليها الصليبيون فى الحملة الأولى (٦) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٥ .

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦ — ٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٣٧ — ١٣٨ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٥ ، ١٢٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٥ .

(٥) ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٧ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٩ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

خامسا : الاقطاع الزنكـى :

تجدر الاشارة هنا الى ما قام به ملكشاه من اقطاع آق سنقر الملقب " قسيم الدولة " — وهو والد عماد الدين زنكى — وكان من كبار الأمراء وأعيان القادة ومن اقرب المقربين الى السلطان ملكشاه ، فقد ربّى معه ، ولذلك كان من أعيان أمرائه ، وأخصّ أوليائه ، اذ ولاه ملكشاه على حلب وأعمالها ، وحماة ، ومنبج واللاذقية وجعله واليا ومقطعا عليها . وظلت تلك الاقطاعات بيده ، وظل يحظى باحترام سلاطين السلاجقة لولائه وجهاده معهم الى أن قتل فى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م .(١)

ولا شك فى أن اقطاع قسيم الدولة آق سنقر كان من أهم الاقطاعات. وقد ترسّم ابنه عماد الدين زنكى خطاه وصار من أقوى الأمراء ، وامتد نفوذه من حلب الى الموصل ، وكان ذلك نتيجة اتصاله بالأمير شرف الدولة مودود صاحب الموصل حتى صار اتابكا له .

وقد امتدت اقطاعات عماد الدين زنكى فشملت واسط ، وصارت البصرة اقطاعا له من السلطان محمود السلجوقى فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م . واخلص له عماد الدين فحظى عنده بمكانة لم يبلغها غيره ، فأضاف اليه

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ ، أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ — ١٣٩ .

الاقطاعات ولقبه « الأتابك »[1] .

وهكذا ظهرت أسرة الاتابكة بالموصل وحلب ودمشق وغيرها من المدن بسبب اقطاع سلاطين السلاجقة الاقطاعات لهم .

وقد انتقل النظام الاقطاعى الحربى السلجوقى الى الدولة الزنكية ، اذ قامت هذه الدولة على القاعدة الحربية العامة[2] .

وقام عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين محمود باقطاع الأمراء والجند الاقطاعات بدلا من الرواتب ، وتوسعا فى ذلك .

ورغبة فى اغراء الجند للتفانى فى الحروب جعل نور الدين بعض الاقطاعات الحربية وراثية ، فاذا توفى المقطع أقرّ الولد على اقطاع أبيه ، فان كان الابن صغيرا رتّب له من يتولّى أمره حتى يكبر ، ولهذا كان الجندى يحارب ويستبسل فى القتال لئلا يفقد اقطاعه[3] .

---

(١) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٦ ، ٢٩ - ٣٠ ، ابن خلدون : تاريخه جـ ٣ ص ٥٠٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧١ ، ٢٧٥ ، جـ ٦ ص ٥ ، ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٨-٢٩

(٢) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٨٠ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٨ - ٩ ، وابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ص ١٧ .

وكان نور الدين مهتما بأحوال أجناد الأمراء المقطعين خشية أن ينقص بعض الأمراء « ما هو مقرر عليه من العدد » ، اذ كان نور الدين يقول : « نحن كل وقت بصدد النفير ، فاذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العدد والعدة دخل الوهن على الاسلام (١) » ولذلك أدى الاقطاع الزنكى دوره فى دفع حركة الجهاد .

وهكذا توسع عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين محمود فى منح الاقطاعات الحربية بدلا من الرواتب ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، غير أنه يهمنا هنا الاشارة الى ما حصل عليه الأيوبيون منها فى ظل الأتابكة .

وترجع بداية اتصال الايوبيين بعماد الدين زنكى الى عام ٥٢٦هـ/ ١١٣١م. اذا كان نجم الدين أيوب واليا على قلعة تكريت فى ذلك الوقت ، ولجأ اليه عماد الدين زنكى بعد هزيمته أمام جيوش الخليفة المسترشد العباسى فأحسن نجم الدين استقباله وقام على خدمته ، وأقام له المعابر على نهر دجلة لمساعدته على العبور والعودة سالما ، فحفظ زنكى هذا الصنيع لنجم الدين .

ولما اضطر نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه الى ترك تكريت والتوجه الى الموصل رحب بهما زنكى وأكرمهما وأدخلهما فى خدمته (٢) ، وأقطعهما فى سنة

---

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨٠ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣ ـ ٦ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٧ ، ٣٦٧ ، ج ٦ ص ٤ ـ ٦ .

٥٣٣ هـ / ١١٣٨م ٠ الاقطاعات الجليلة فى شهرزور بشمال العراق ، وأفـــرد أسد الدين باقطاعه الموزر ٠

وعندما ملك زنكى بعلبك جعل نجم الدين أيوب متحفظا عليها ، ثم كـان مقتل زنكى فى قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ ٠ فطمع معين الدولة آثر صاحب دمشق فى امتلاك بعلبك ، ولم يجد نجم الدين أيوب بدا من تسليمها اليه فى مقابـــل اقطاع كبير فى دمشق (١) ٠

ثم تولى نور الدين محمود بعد أبيه زنكى وسار على نهج سياسته فيمـــا يتعلق بمنح الاقطاعات الحربية بدلا من الرواتب ٠

أما عن صلة نور الدين بنجم الدين أيوب فقد قام الأخير بدور كبير فيمـــا يتعلق بتسليم مدينة دمشق الى نور الدين فى سنة ٥٤٩ هـ ٠ فكافأه نور الدين بأن جعله حاكما عليها ٠ وظفر نجم الدين وأخوه أسد الدين بمزيد من الاقطاعات نظير استمرارها فى خدمة نور الدين والولاء له ، وصار أسد الدين نائبا لنـــور الدين على القسم الجنوبى من بلاد الشام ، وصارت حمص والرحبة ضمن اقطاعاته (٢) ٠

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩ ، أبوشامه : الروضتين ج ١ ص ٢٥٠، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٧٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٢ ، حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ص ٢٩ ـ ٣٩ ٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٠ ، ابن العبرى : مختصر الدول ص ٢١٢، ٢١٣ ، أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٤٧ ، ابن خلدون : تاريخه ج٥ ص ٢٧٨٠

ومما يذكر انه قد كان لاستيلاء نور الدين على دمشق أثره البالغ فى تنشيط حركة الجهاد ضد الصليبيين ٠

أما صلاح الدين فانه كان فى سنة ٥٤٦هـ ، قد توجه الى عمه أسد الدين فى مدينة حلب فقدمه عمه الى نور الدين فحظى عنده بالقبول ، وأقطعه اقطاعا حسنا (١) ، وفى سنة ٥٦٣ هـ أقطعه ضيعتين ، احداهما فى حلب ، والاخرى فى كفرطاب (٢) ٠

وقد كان للاقطاع الزنكى دور مهم فى تشجيع الجند وحثهم على التفانى فى القتال ، فقد أخذ نور الدين بمبدأ توريث الاقطاع ، ولذلك كان الجند يقولون : " هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها " (٣) ، وكان من يستشهد منهم فى القتال ينتقل اقطاعه الى أولاده ، فان لم يكن له ولد جعله لبعض أهله ٠ واذا كان الابن صغيرا جعل نور الدين معه من تولى شئونه حتى يكبر (٤) ٠ وأما من يثبت تقاعسه أو فراره من المعركة فقد كان جزاؤه أن يسحب اقطاعه ويصير بطالا ، ودليل ذلك ما حدث فى معركة البابين ، فعندما توجهت

---

(١) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٤١٠ ٠

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ١٢ الورقة ١٢ ٠

(٣) ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٨ ، ٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٨٠ ، وابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ص ١٧ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦ ٠

(٤) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ١٣٨ ٠

الجيوش النورية للمرة الثانية الى مصر فى سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م تقدم أسد الدين شيركوه بقواته الى صعيد مصر (١)، وتعقبته القوات الفاطمية المتحالفة مع الصليبيين الى بلدة البابين بالقرب من مدينة المنيا . ونظرا الى كثرة جند الأعداء دخل الوهن فى قلوب الجند النورى ، وطلب بعضهم من شيركوه أن يعبر بهم النيل الى الجانب الشرقى ليتمكنوا من الانسحاب والعودة الى الشام وقالوا له : " ان انهزمنا فالى من نلتجئ وبمن نحتمى ، وكل من فى هذه الديار من جندى وفلاح عدوّ لنا (٢) ، وفتّ ذلك فى عضد الجند لولا أن قام أحدهم ويدعى شرف الدين برغش وعمل على تحميسهم واعادة الثقة الى نفوسهم ، ونبّههم فى الوقت نفسه الى عواقب الهزيمة وقال لهم : " من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيته . والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكية وليعودنّ علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمنا الى يومنا هذا (٣) ، ثم قال : "تأخذون أموال المسلمين وتفرّون من عدو لكم ، وتسلمون مثل مصر الى الكفار (٤) " فأستعاد

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢١٤ ، تاريخ الدولة الاتابكية ص ٢٣٨ .
(٢) ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ص ، ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٣) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ١٤٣ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢١٤ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٣٠ .
(٤) أبو شامه : نفس المصدر والصفحة ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٠ ، وابن الاثير : نفس المصدر والصفحة ، ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ١٠ ـ ١١ ، جيش مصر ص ٤ ـ ٥ .

الجميع ثقتهم فى أنفسهم ووافقوه على قوله ومن بينهم شيركوه وصلاح الدين ، فكان ذلك من أسباب ثبات الجند النورى واستماتتهم فى القتال حتى كتب الله لهم النصر فى هذه المعركة .

وهكذا كشف هذا الموقف فى معركة البابين عن طبيعة نظام الاقطاع الحربى الوراثى ، وأثره فى نفوس المحاربين . كما كشف أيضا عن قاعدة الوراثة ومداها فى الدولة النورية .

مما سبق يتضح أن بنى بويه قد بدءوا فى الأخذ بنظام الاقطاع الحربى ، وعنهم انتقل الى السلاجقة فطوّروه ، ثم انتقل كاملا الى الدول التى نشأت فى أحضان السلاجقة وتفرّعت عن دولتهم ، فقد ورثه الزنكيون عن السلاجقة وأخذوا بمبدأ التوريث فيه . وكان طبيعيا أن يأخذ الأيوبيون بنظام الاقطاع الحربى الاتابكى وقد عاصروه وخبروه وأدركوا مدى نفعه ، وان لم يأخذوا بمبدأ الوراثة الا فى أضيق الحدود . وعن الايوبيين انتقل هذا النظام الى دولة المماليك .

قال ابن تغرى بردى : " أنشأ بنو بويه بنى سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سنقر جدّ بنى زنكى ، ثم أنشأ بنو زنكى بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك ... " (١)

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٢٧٩ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٥ .

سادسا : الاقطاع الفاطمى :

عندما جاء الايوبيون الى مصر ، وجدوا بها نظامـا للاقطاع معمولا به عند الفاطميين ، وهو نظام يكتنفه الكثير من الغموض . ولكن بالاعتماد على ما أمدّتنا به المصادر يمكن القول بأنه فيمـا يتعلق بالفترة السابقة على عهد المستنصر الفاطمى كانت الاقطاعات تمنح فى بعض الأحيان بدلا من الرواتب لبعض رجال الدولـة من المدنيين ، كالوزراء وأصحاب الدواوين ، ومن هؤلاء : الوزير الفاطمى يعقوب بن كلّس ، وقد جعل العزيز الفاطمى اقطاعه فـى كل من مصر والشام [١] . ومنهم : شمس الملوك رئيس ديوان الكتاميين الذى عزله الظاهر الفاطمى فى سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤م [٢] .

ومما يذكر أنه نتيجة للفوضى التى سادت فى عصر المستنصـر الفاطمى ترك أمر الجباية للجند ، ولذلك تمكنوا من الاسـتحواذ على الكثير من المناطق فصارت اقطاعا لهم ، ليس عليهم الآ سـداد المبالغ المربوطة عليها لبيت المال . وهكذا صار هذا النوع مـن

---

(١) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ ، الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٦ ص ٢٢٥ .
Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, P.26

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٧ ، عبد العزيز الدورى : تاريـخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، ص ٢٩ .

الاقطاع بدلا من الراتب ، وليس فى مقابل ما يقوم به صاحبه من جباية متحصلات الاقطاع[1] .

ونتيجة لسوء الاحوال الزراعية ونقص العائدات ، قام الافضل بن بدر الجمالى فى بداية القرن السادس الهجرى بعمل مسح للاراضى الزراعية ، واعادة توزيع الاقطاعات ، وهذا ما عرف باسم " الروك الافضلى "[2] . ثم أصبح فى امكان من يزيد فى قيمة ما يدفعه الى بيت المال أن يحصل على الاقطاع الذى يرغب فيه ، ولذلك — وحتى لا يضيع الاقطاع من صاحبه — كان المقطع من تلقاء نفسه يزيد من القدر المستحق عليه حفاظا على اقطاعه .

فلما تولى البطائحى الوزارة فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢٢م . أصدر أوامره بمنع نقل الاقطاعات أو تحويلها مادام المقطع يحافظ على التزامه المالى[3] .

وقد وصف العاضد الفاطمى ما آلت اليه أحوال البلاد من سوء فى كتاب من انشاء القاضى الفاضل وجّهه العاضد الى أسد الدين شيركوه بتقليده مهام الوزارة قال : " وامير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة ، وان يكون عدلك

---

(١) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٤ ، ناصرى خسرو : سفرنامة ص ٥٣ . Rabie, op.cit., P.27

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٨٣ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ١٣ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٤ .

فى البلاد وكيل العمارة ، والرعايا قد علمت ما نالهم من اجحاف الجبايات ، واسراف الجنايات ، وما توالى عليهم من ضروب النكايات . فاعمر أوطانهم التى أضر بها الجور والأذى ، وأنف عن موارد هم الكدر والقذى ".(١)

ولا شك فى انه قد كان لكتاب التقليد هذا أثره الكبير فى اطلاق يد شيركوه وصلاح الدين من بعده ، فى التصرف فى كافة الشئون .

ولما كان الهدف من قدوم القوات النورية الى مصر هو التخلص من الفاطميين الذين كان لضعفهم وتشاحن وزرائهم أثر فى الاستعانة بالقوى الصليبية المتربصة ، لذلك كان لابدّ لشيركوه وصلاح الدين من بعده من الاهتمام بالجيش ، ولم يكن فى الامكان الاعتماد على جند الفاطميين ، لأنهم القوى التى لم يكن صلاح الدين يتوقع مساعدتها له فى تحقيق أهدافه . وقد كان الجند الفاطمى الدعامة التى يستند اليها الفاطميون ، فكان من المحتم أن يتخلص صلاح الدين من تلك الدعامة أولا ، حتى يسهل عليه القضاء على الدولة الفاطمية .

ومما ساعد شيركوه وصلاح الدين من بعده ، على ذلك أن الفاطميين كانوا يتبعون نوعا من الاقطاع الحربى على النحو الذى سبق توضيحه ، وهو وان اختلف كثيرا عما عهده الايوبيون فى الاقطاع الزنكى ، فانه قد صار أساسا لاقطاع أمراء

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٨٠ـ ٩٠ .

الجيش النورى ثم الأيوبى بعد ذلك ، وقد تم هذا التوزيع الجديد بطريقة تدريجية .

وهكذا خفف وجود الاقطاع الفاطمى من أعباء الايوبيين وخاصة الاعباء المالية.

ويهمنا من ذلك أن الأيوبيين قد وجدوا فى مصر نظاما للاقطاع فأبقوا عليه باعتباره نظاما أمكن استخدامه ، ولكنهم فيما يتعلق بالتطبيق أخذوا بالأسلوب الأتابكى باستثناء مبدأ التوريث .

ومما تجدر الاشارة اليه أن شئون الاقطاع الفاطمى كانت من بين اختصاصات ديوان الجيش ، وكان ذلك الديوان يشتمل على ثلاثة أقسام :

الأول : يختص بالأجناد واحصاء أعدادهم .

الثانى : يختص بالاقطاعات .

الثالث: يختص بالرواتب والجوامك .(١)

....

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٧ .

الفصل الثاني

الخدمات العسكرية والمدنية في الإقطاع الأيوبي

قامت الدولة الأيوبية مقام دولتين : الدولة الفاطمية فى مصر ، والدولة الزنكية النورية فى الشام وأطراف العراق .

وقد أخذت الدولة الأيوبية نظمها العسكرية وسياستها الحربية عن دولة الأتابكة الزنكية النورية بصفة خاصة ، فقد نشأ الايوبيون الأوائل فى كنف عماد الدين زنكى وأهله ، وعملوا فى خدمته ، واستمرّ ولاؤهم لابنه نور الدين من بعده . وكانت نشأة صلاح الدين فى البلاط الزنكى .

ولقد نشأ صلاح الدين هناك محبا للجهاد ، وبدت عليه أمارات الشجاعة من صغره ، فلما شبّ جاء الى مصر صاحبا لعمه أسد الدين شيركوه فى جيش من جيوش نور الدين . وتكرر قدوم هذه الجيوش الى مصر الى أن تولى شيركوه فى المرة الثالثة الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد ، ثم خلفه صلاح الدين فى منصب الوزارة فى الدولة الفاطمية مدة غير قصيرة (١) ، مع بقائه على التبعية لمخدومه الأول نور الدين محمود زنكى .

ولقد كانت سياسة الدولة النورية الزنكية ونظمها مأخوذة فى أساسها عن الدولة السلجوقية ، وكان الأمر كذلك فى الدولة الأيوبية ، فقد انبثقت من الدولة

---

١ - وزر شيركوه للخليفة العاضد الفاطمى من ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ حتى ٢٣ جمادى الآخرة من نفس السنة .
وكانت وزارة صلاح الدين من ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ حتى استقل بالسلطنة فى المحرم ٥٦٧ هـ .

الزنكية ، ولذلك فان البحث فى الاقطاع الحربى فى العصر الأيوبى يتطلب الرجوع من حين الى حين الى نظم السلاجقة ، والزنكيين ، والفاطميين ، بالقدر الذى يساعد على اظهار مدى تأثر النظم الأيوبية بما قبلها بوجه عام ، وعلى بيان مدى تأثر الدولة الأيوبية بالدولة التى انبثقت منها والدولة التى قامت على أنقاضها (١) .

ومن المعروف أن الدولة السلجوقية اصطبغت بصبغة عسكرية ، واتخذت من الاقطاع الحربى قاعدة وأساسا لها منذ أواخر القرن الرابع الهجرى أى بداية القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن المعروف أيضا أن الدولة النورية الزنكية ، قد قامت على القاعدة نفسها أى الاقطاع الحربى ، اذ جعل نور الدين بعض الاقطاعات الحربية وراثية بهدف الترغيب فى الانضمام الى الجندية والاستبسال فى القتال ، وقد أدّى هذا الى الاستكثار من الجند رغبة منه فى بعث حركة الجهاد . والوقوف أمام الصليبيين وتخليص أرض الاسلام منهم (٢) .

وعلى الرغم من أن توريث الاقطاع الحربى يعدّ مخالفا لأحكام الاقطاع فى الاقطاع العسكرى ، فاذا توفى المقاتل وكان له وريث ذكر أقرّ له الاقطاع ، فان

---

(١) أنظر : حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر ص ٨

(٢) أبوشامه : الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٨٠ ، والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦ ، حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر ص ٩ .

كان الوريث كبيرا استقلّ بالاقطاع ، وان كان صغيرا رتب معه من يتولّى أمره الى أن يكبر[١] .

ولقد كانت هذه القاعدة فى التوريث مطبقة ما دامت الانتصارات ، أما فى حالة الهزيمة أو الاخلال بالواجبات العسكرية فقد كان الاقطاع معرضا للرجوع فيه ، يؤيد ذلك ما قاله الأمير شرف الدين برغش عندما أحسّ بتقاعس معظم أمراء جيش نور الدين عن محاربة الصليبيين الفاطميين فى موقعة البابين بصعيد مصر سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م ، اذ قال : « والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ، ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه منذ خدمناه الى يومنا هذا ، وأضاف قائلا : « لا تأخذوا أموال المسلمين وتفرّوا من عدوهم وتسلموا مثل مصر الى الكفار والحق بيده »[٢] فوافقه الجميع على قوله ، وأيّده صلاح الدين فى ذلك .

وقد عمل صلاح الدين بعد ذلك على نقل نظام الاقطاع الحربى الزنكى الذى تعوّد عليه وألفه ، ولذا كان من الطبيعى أن يعمل صلاح الدين منذ صارت فى يده السلطة فى مصر على تطبيق وتعميم ذلك النظام الذى يقضى بأن يكون الاقطاع فى مقابل الخدمة بالجيش[٣] .

---

(١) أبو شامة : نفس المصدر والصفحة ،ابن واصل : نفس المصدر والصفحة .
(٢) أبو شامة : الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ،ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٥٠ ـ ١٥١ ،
(٣) أبو شامة : الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ،
الدوادارى : الدرة المضيئة ص ٥٦٩ـ٥٧٠ .
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ،

واستمّر هذا النظام معمولا به فى عصره ، وامتدّ فى زمن خلفائه من سلاطين الايوبيين فى صورة نوعين من الاقطاع :

عرف الاول باسم الاقطاع الاداري ، وقد اختصّ به الأمراء من الاسرة الأيوبية الحاكمة ، وكبار الأمراء والموظفين ، وكانت الاقطاعات من هذا النوع فى المعتاد تنطبق على وحدات اقليمية ادارية .

والنوع الآخر هو الاقطاع الحربى ، ولا يختلف فى أصوله وقواعده ومظاهره عن الاقطاعات السلجوقية والزنكية ، اذ اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية ، وكان خاضعا لسيطرة الحكومة المركزية . ولم يكن وراثيا ، وكان من النادر أن يبذل مدى الحياة .(١)

وهكذا فقد قام صلاح الدين باقطاع الاقطاعات لابناء البيت الأيوبى ولأمراء الجند ، هذا فضلا عن اقطاعات العربان .

ونستطيع أن نتتبع هذه الأنواع كلها بدراسة التطور التاريخى لنظام الاقطاع الأيوبى ، ويبدو أن نظام الاقطاع الفاطمى كان قد تطور تدريجيا بعد تحوّل عدد من الأمراء الزنكيين الى العمل فى الجيش الفاطمى قبل سقوط الدولة الفاطمية .

وقد ذكر أبو شامة نقلا عن ابن أبى طى أنه فى أثناء وجود حملة شيركوه

---

(١) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر ، ص ١٣ .

الأولى على مصر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م • عمل الوزير الفاطمى شاور على اغـــراء عدد من الأمراء الزنكيين بالانضواء تحت لوائه ، فكان خشترين الكردى ممن عمل معه من جند نور الدين ، فمنحه شاور قرية شطنوف اقطاعا له (١) • وأضافت المصادر أنه عندما أصبح شيركوه وزيرا للعاضد فى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م منح من كان معه من الأمراء اقطاعات من الأراضى المصرية (٢) •

واتبع صلاح الدين السياسة نفسها عندما خلف عمه شيركوه فى الـــوزارة (٣) ، وهذا يدل على أن نظام الاقطاع الفاطمى غير العسكرى قد خضع للتعديـــلات تحت اشراف الأمراء الزنكيين اذ ربطوا الاقطاعات بالخدمة العسكرية •

ولقد كان الاقطاع الفاطمى غير عسكرى ، ولكن صلاح الدين استغلّ هذا النظام وجعله تمهيدا لقيام الاقطاع العسكرى ، أى أنه لم يتخذ النظام الفاطمى بحذافيره (٤) • وقد جعله هذا من الناحية الاقتصادية أكثر تحرّرا ، اذ لم يعـــد خاضعا لنظام العشر ، لأن صلاح الدين والمقطعين الزنكيين الجدد فى مصـــر كانوا قد ألغوا نظام الاقطاع العسكرى الزنكى الذى يقضى بأن يكون الاقطاع فـــى

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ قسم ٢ ص ٤٢٤ •

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ •

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ١ قسم ٢ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٥ ، العصامى : سمط النجوم العوالى جـ ٤ ص ٦ ــ ٧ •

(٤) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, PP. 28-29 .

مقابل الخدمة العسكرية (١) ٠

ويفهم من هذا أن النظام الذى عمل به صلاح الدين فى مصر لم يكن مطابقا تمام المطابقة لنظام الزنكيين وان كان الاقطاع يمنح فى مقابل الخدمة العسكرية ، فقد كان هناك بعض أوجه الاختلاف ، اذ ألغى صلاح الدين نظام التوريث فى الاقطاع ، كما أن المقطع لم يكن يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى غير العادى كما كان الشأن فى نظام الاقطاع الزنكى (٢) ٠

وبالمقارنة بين نظام الاقطاع الحربى الذى نحن بصدده ، والاقطاع الذى كان سائدا فى أوربا فى خلال العصور الوسطى يتضح لنا أن اقطاع الأيوبيين لم يكن مأخوذا من نظام الاقطاع الاوربى ولا متأثرا به ٠ وهذا يتفق مع ما ذكره بعض الكتاب الاوربيين من أن الظروف التى رافقت ظهور نظام الاقطاع فى الشرق وتطوره تختلف كثيرا عن الظروف التى كانت سائدة فى أوربا الغربية عند ما نشأ نظام الاقطاع ، وعلى ذلك كانت النتائج مختلفة (٣) ٠

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٠ ، ٤٢٨ ، ابن كثير جـ ١٢ ص ٢٣٢ ٠

Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt. P. 29 .

(٢) Cahen: Art. "Ayyubide Enc. of Islam(new edition)

Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, PP. 29-30 .

(٣) Lambton: Contributions to The Study of Seljuq Institutions PP. 263-4

:Landlord and Peasnt in Persia, P. 53.

توزيع صلاح الدين الاقطاعات الحربية منذ ولايته الوزارة للخليفة العاضد :

عندما قدم نجم الدين أيوب الى مصر في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م . خرج الخليفة العاضد للقائه ، ورتب له القصور ، وأعطاه صلاح الدين دارا بجانب دار الوزارة وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة (١) . وأقطع صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه اقطاع آخر شمل قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرة هذا الاقطاع ٢٦٦ ألف دينار في السنة (٢) .

وقد كان لاخوة صلاح الدين وبقية أبناء البيت الأيوبي في مصر دور بارز في جيش صلاح الدين ، ولذلك حصلوا على اقطاعات مناسبة (٣) .

وفي السنة التالية ٥٦٦هـ / ١١٧١م . أضاف صلاح الدين الى اقطاع

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ورقة ١٦٧أ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٠ ، أبوشامة : الروضتين ج ١ ص ٤٦٦ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ص ١٨٧ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : الصدر السابق نفس الورقة ، الحنبلى : شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ص ٥٠ ـ ٥١ ، أبوشامة : الصدر السابق ، ابن قاضى شهبة : الصدر السابق ، الاول في تاريخ ابى الهيجاء ، لوحة ١٦٧أ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٧ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٤٤ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١ ص ٦٧ ، ابن الصيرفى : ديوان الرسائل ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

أخيه توران شاه مدينة بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها ، كما أقطعه كل ما يتولى فتحه من البلاد بعد ذلك (١) . وكذلك أقطع صلاح الدين أخاه بورى اقليم الفيوم (٢) ، وكانت عبرته ١٠٠٤٦ دينار (٣) .

ومما يذكر أن صلاح الدين عمل على تنظيم الجيش ، فعكف على التخلص من أمراء الفاطميين من مصريين وعربان وأرمن وسودان وغيرهم ، وبدأ بأن أبطل اقطاعاتهم (٤) ، وأحل محلهم أمراء جنده من الأتراك والاكراد ، وخصهم بمعظم تلك الاقطاعات (٥) ، وقد شرع صلاح الدين فى ذلك فى السنوات التى جمع فيها بين وظيفته النورية ووظيفته الفاطمية ، مترسما نظام الفاطميين فى الجمع بين العطاء والاقطاع الضمنى فى الجيش ، غير أنه عمم القاعدة الاقطاعية بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١ ـ ١١٧٢م مصداق ذلك قول المقريزى : « ومنذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٤٨٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ص ١٣٠ ، العينى : عقد الجمان جـ ١٢ ورقة ١٦٥ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ص ٢٧ .

(٣) أبوصالح الارمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح الارمنى ص ٨٩ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ١٢ ورقة ١٥٠ ،
ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ١٦٦أ .

(٥) الاصفهانى : سنا البرق الشامى ق ١ ص ٢٤٧ ،
نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ٢٧ .

وأجناده (١) .

وهكذا نرى أنه لأول مرة فى تاريخ مصر يتم توزيع أراضيها اقطاعات للسلطان وجنوده حتى قبل القضاء على الدولة الفاطمية ، وكانت هذه الفترة هى التى أخذ فيها صلاح الدين يمكّن لنفسه . وطبيعى أن ينقل الى مصر نظام الاقطاع الحربى الزنكى ، الوراثى منه والشخصى غداة استتبّ له الأمر بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ ـ ١١٧٢م (٢) .

وكان من الطبيعى بعد توزيع الاقطاعات بين أبناء البيت الأيوبى أن يعمد صلاح الدين الى توزيع اقطاعات أخرى بين قادة الجيش النورى وهو ما يزال تابعا للدولة النورية لكى يثبت أقدامه فى البلاد التى أصبحت خاضعة له ، فأقطع الأجناد والبلاد ، وأعطى الأمراء والأصحاب من القرى نفائسها ، ومن الأمكنة عرائسها (٣) .

ومن الأدلة على ذلك أن الأمير خالد بن القيسرانى خال نور الدين جاء الى مصر سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م . لمحاسبة صلاح الدين على ما قام به بعد أن أخذت المخاوف تساور نور الدين من جهة صلاح الدين ، فتفقد القيسرانى ، الاجناد ومبالغ

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٩٧ ،
Rabie(H.M.):TheSize and Value of The Iqtāʿ in Egypt, 564-741 A.H./1169-1341 A.D.(in Cook(Ed.) Studies in The Economic History of the Middle East) , P. 129

(٢) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات م ٤ جـ ١ ص ٦٧ .

اقطاعاتهم وجامكياتهم ورواتب نفقاتهم ، مما يدل على أن صلاح الدين عمم نظام الاقطاع الحربى فى مصر منذ أوائل أيامه (١) .

وهناك مثل آخر لذلك ، فعندما استولى صلاح الدين على حمص وحماة فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م . أقطع حمص لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وأقطع حماة لخاله شهاب الدين الحارمى (٢) وترتب على ذلك أن خضع الأمراء والاجناد للسلطان صلاح الدين وأطاعوه وشاركوه فى جهاده ضد الصليبيين يدل على ذلك هذا الخبر الذى يذكره ابن الفرات عن مسير الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر صاحب منبج باعتباره ملزما بموجب اقطاعه ، لذلك سعى لمشاركة السلطان فى قتال العدو (٣) .

وكان السلطان صلاح الدين يعطى المدن المفتوحة لأمرائه وأجناده ، على سبيل الاقطاع ، فعندما استولى على عزاز فى سنة ٥٧١هـ . اقطعها لابن اخيه

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢١٩ ، ابن واصل / مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٢ .

(٢) البندارى : سنا البرق الشامى جـ ١ ص ١٩٣ ، دواداری : كنز الدرر جـ ٧ ص ٥٨ ــ ٥٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٢٥٧ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٨٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى ص ٦٨ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات م ٤ جـ ٢ ص ٢٢١ .

تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب[1] ، ولما فتح بعلبك فى سنة ٥٧٤هـ اقطعها اخاه شمس الدولة بن ايوب[2] . وعندما فتح نصيبين سنة ٥٧٧هـ اقطعها ابا الهيجاء السمين[3] .

كما استمال صلاح الدين ملوك الاطراف فصار معه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا . وحاصر الرّها وتملّكها وسلّمها الى كوكبورى ، ثم أخذ الرّقة ثم قرقيسيا وماكسين وعربان والخابور وسنجار وأقطع كل ذلك لامرائه[4] .

وبدأت مرحلة جديدة فى توزيع الاقطاعات عندما قام السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م . بعملية " الروك الصلاحى "واعادة مسح الأراضى الزراعيةوتوزيعها ، ~~فقد احتاج~~ ثم رأى صلاح الدين فى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م . الى اعادة النظر فى التوزيع الاقطاعى العام ، ~~فقام بتلك العملية قياما وصفه القاضى~~ وفى ذلك يقول القاضى الفاضل فى متجدداته لشهر رجب من تلك السنة ~~بقوله~~ : « استمرّ انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة فى أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها ، والنقص منها ، والزيادة فيها ، واثبات المحروم ، وزيادة المشكور[5] " .

---

(١) أبوشامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٦١ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٣ ، .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

(٣) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٩٩ ـ ١٠١ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٤) ابن الوردى : المصدر السابق ، أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٦٤ ـ ٦٥ ، أبوشامة : الروضتين جـ ٢ ص ٣٠ .

(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٦ ـ ٨٧ ، سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٦٤ .

واستولى صلاح الدين – وهو بصدد ترتيب الاقطاعات فى تلك السنة – على اقطاعات العربان ، وعوض بها مقطعى الفيوم ، بعد أن صارت الفيوم كلها اقطاعا للسلطان (١) .

ولم يمض على ذلك التنظيم الاقطاعى سنتان حتى جعل صلاح الدين اقليم الفيوم اقطاعا لابن أخيه تقى الدين عمر (٢) ، فصار اقطاعه يشتمل على البحيرة وعبرتها أربعمائة ألف دينار ، والفيوم وعبرتها ثلاثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش وعبرتها سبعون ألف دينار ، وفوه والمزاحمتين وعبرتهما أربعون ألف دينار ، وحوف رمسيس وعبرته ثلاثون ألف دينار ، والاسكندرية وعبرتها ثمانية عشر ألف دينار ، ثم اشتمل اقطاعه على سمنود والواحات عوضا عن بوش وعبرتهما ستون ألف دينار (٣) .

كما قام السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م . باعادة النظر فى التوزيع الاقطاعى ، ويشير العماد الاصفهانى الى ذلك بقوله : " وشرع السلطان فى اقطاع البلاد ، والتوقيع بها على الاجناد . (٤)

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٥٢ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩١ ، الحاشية رقم ٣ .

(٤) أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٦٢ ، سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك ص ١٦٤ .

واستجاب صلاح الدين فى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م · لنصيحة أحد كبار أمرائه وهو علم الدين سليمان بن جندر فقام بتقسيم دولته تقسيما اقطاعيا ووزعها على أبنائه وأبناء البيت الأيوبى · (١) بأن جعل مصر لولده العزيز عثمان ، والشام لولده الافضل ، وحلب لولده الظاهر ، وأعطى أخاه العادل اقطاعات كثيرة بمصر ، (٢) وجعله أتابكا للملك العزيز ، وأعطى ابن أخيه تقى الدين حماة والمعرّة ومنبج وأضاف اليه ميافارقين · (٣)

تلك كانت الاوضاع الخاصة بالاقطاع حتى أواخر عهد صلاح الدين ·

الاقطاع الحربى فى الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

سار السلطان العادل باعتباره أتابكا للملك العزيز بن صلاح الدين على خطى أخيه صلاح الدين فيما يتعلق بالنظام الاقطاعى الحربى وفى بقية شئون الحكم والادارة ·

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٧١ ـ ١٧٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٢١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣١٩ ، حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٢٩ - ٣٠

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار الورقة ١٨٤أ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٣ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٣٣٥ ·

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٤٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ١٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٣ ، أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٧٩ ·

وقد أحدث النزاع بين أبناء صلاح الدين بعد وفاته انقساما فى صفوف الجيش الأيوبى ، اذ كان العزيز عثمان فى مصر ميالا الى الأمراء الصلاحية ، فأغضب ذلك الأمراء الأسدية أمراء شيركوه عم أبيه .

ولقد كانت سياسة العادل مبنية على أساس التدخل فى شئون أبناء صلاح الدين فى مصر والشام ، فأرسل الى الأمراء الأسدية يمنيّهم بالاقطاعات الكبيرة اذا ظلّوا على موقفهم من العزيز عثمان .

وفى سنة ٥٩١هـ . استقرّ الأمر بين السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين وعمه العادل على أن يرجع الأسدية والاكراد الى خدمة العزيز من غير أن يحاسبهم على شئ وأن يردّ عليهم اقطاعاتهم ويستوثق منهم ويستوثقوا منه .(١)

ووفى العادل بما وعد به الأسدية وأقطعهم الاقطاعات الوافرة فى سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥م .(٢)

ولما صارت السلطنة للعادل سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م . قسم الدولة تقسيما اقطاعيا بين أبنائه ، فجعل ولده الكامل نائبا له فى الديار المصرية وجعل الشرقية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢٨ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢٤١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٥١ - ٥٢ ، ٥٥ ، حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٣٠ .

واعمالها اقطاعا له (١)، وجعل ابناءه الاخرين نوابا عنه فى مناطق أخرى من الدولة الأيوبية .

وعمل العادل على أن يكون أولاده هم أصحاب الاقطاعات الكبرى فى مصر، فاقطع ولده الملك الفائز ابراهيم الأعمال القوصية ، واقطع ولده الملك المفضّل قطب الدين الأعمال الفيومية وكانا أكبر الاقطاعات (٢) . وعندما طلب منه الأفضل سميساط وسروج ورأس عين أجابه ، وطلب الظاهر منبج وفامية وكفرطاب فأجابه وحلف لهما (٣) . وفى سنة ٦٠٦ هـ . أقطع العادل الملك الصالح محمود الأرتقى صاحب آمد سنجار (٤) .

وكان العادل قد أعاد النظر فى أمور الاقطاع مثلما فعل صلاح الدين من قبله فأنفذ المقطعين الى اقطاعاتهم (٥) . وأقطع بعض الأمراء الاقطاعات التى حُلّت لخروج أمرائها من الخدمة ، وعهد الى كل منهم باعداد العسكر المطلوب من كل اقطاع . وحاسب المقطعين على ما تحت أيديهم (٦) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٥٢ ، الاصفهانى : البستان الجامع لتواريخ أهل الزمان الورقة ١٤٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٧ الورقة ١٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٢٩ ، سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ٦٤ ١

(٣) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٩٥ .

(٥) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٦٥ .

ونفّذ السلطان العادل سياسة أخيه صلاح الدين نفسها بصدد تقسيم دولته قبل وفاته . واهتم بأبنائه فوق اهتمامه بغيرهم من أبناء البيت الأيوبي فأعطى ابنه الاكبر المعظم عيسى مملكة دمشق ، وأعطى الاشرف موسى مملكة بلاد الشرق ، وأعطى الكامل محمدا الديار المصرية . وأقام هؤلاء جميعا في مناطقهم ، وأخذ هو يتنقل من مملكة الى أخرى ، وصارت " العهدة في كل الممالك عليه " (١) .

ومما يذكر أن الاشرف موسى تبادل مع أخيه شهاب الدين غازى بعض ما تحت أيديهما من اقطاعات ، فأعطاه الاشرف في سنة ٦١٧ هـ . مدينة خلاط وجميع الاعمال : أرمينية وميافارقين في ديار بكر ، وذلك في مقابل أن يأخذ الأشرف والرّها وسروج من بلاد الجزيرة (٢) . كما أقطع الاشرف رأس العين لعماد الدين بن المشطوب (٣) .

وسار السلطان الكامل على سياسة أبيه وأجداده ، فمنح أبناء البيت الايوبى الاقطاعات الكبرى ، واستخدم في بداية عهده سياسة منح الاقطاعات لاجتذاب المعارضين له ولمكافأة المخلصين . فعندما تزعّم الامير عماد الدين

---

(١) ابن العميد : أخبار الايوبيين ص ١٣١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٢٧ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٣٩٨ ، شاكر محمود : العسجد المسبوك جـ ١ ص ٣٨٠ .

(٣) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

ابن المشطوب مؤامرة عليه استطاع الكامل أن يصرف عن المشطوب من انضم اليه من الأمراء بالتلويح لهم بالاقطاعات (١) .

وعندما اشتد الحصار الصليبى على دمياط فى سنة ٦١٥هـ / ١١١٨م ، أراد الملك الكامل أن يحث أهلها على الثبات أمام الحصار ، فانبرى للقيام بذلك أحد الجند ويدعى شمايل ، وقد استطاع القيام بهذه المهمة عدة مرات فكافأه السلطان الكامل وجعله بردداراً (٢) ، ثم منحه اقطاعاً وجعله جندياً فى العدة ، وهذا مما يدل على اهتمام السلاطين الايوبيين بمكافأة المخلصين من اجنادهم بالاقطاعات ، كما يؤكد دور الاقطاع الحربى فى تفانى الجند لتحقيق الانتصارات الحربية " لبنى أيوب على أعدائهم (٣) .

وفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م . أقطع السلطان الكامل أخاه الملك المفضل قطب الدين اقليم الفيوم اقطاعاً . كما أقطع السلطان الكامل فى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ابن أخيه الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل اقليم البحيرة من ديار مصر ، وكان قد رباه بعد موت أبيه (٤) .

---

(١) ابن العميد : أخبار الايوبيين ص ١٣٣ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ الورقة ٣٤ .

(٢) البردار : هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨)

(٣) ابن أيبك : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ج ٧ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، ٢٠٠ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ .

" ورتّب الطواشى شمس الدين صواب العادلى نائبا فى أعمال بلاد الشرق ، وأعطاه اقطاع أمير مائة فارس ، زيادة على ما بيده من الديار المصرية وهى أعمال اخميم بكاملها ، وقاى والقايات ودجوة بامرة مائتين وخمسين فارسا ، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارسا . ورتّب كمال الدين ابن شيخ الشيوخ وزيرا (١) ، ويذكر ابن واصل أن اقطاعه كان عمل الجيزة (٢) ، وعندما قام صاحب آمد وبلادها بتسليم بلاده الى السلطان الكامل فى أثناء زحفه عليها سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م أحسن الكامل اليه ووعده باقطاع جليل من الديار المصرية (٣) .

فلما كان عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان الاقطاع الحربى الايوبى قد نضج نضجا تاما واستقرت اركانه ، فقد قام السلطان الصالح فى سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م . بمنح عمه الملك العزيز ابن الملك العادل اقطاعا فى مصر فى مقابل تقديمه مائة وخمسين فارسا (٤) ، كما خصص الاقطاعات للكثيرين من أبناء البيت الايوبى (٥) ، وأفرد للخوارزمية اقطاعات وافرة فى مقابل خدماتهم الحربية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق ١ ص ٢٣٨-٢٣٩ ، ابن العميد : أخبار الايوبيين ص ١٣٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب الورقة ٢٥١ ب .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧ - ١٨ ، ابن تغرى بردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٣٢ ، وابن العميد : أخبار الايوبيين ص ١٤٠ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٦٦ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ص ٣٢ .

(٥) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٣٥٣ ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار الورقة ١٦١ ب .

لدولته (١) ، فاقطعهم البلاد ، ومن جملتها حرّان والرّها وسروج . فصادت الخوارزمية الى خدمته " (٢) . بالاضافة الى ما أقطعه لمماليكه الأتراك ، فقد أراد أن يكافئهم لثباتهم فى خدمته حين تركه الناس وخذلوه ، فكلما أخذ اقطاعا من أمير أعطاه لمملوك من مماليكه وقدّمه حتى صار أكثر الأمراء من مماليكه (٣) . وفى وصيته المشهورة لولده توران شاه لم ينس أن يوصيه بزيادة اقطاعات مماليكه البحرية الصالحية ، ومنها ما نصه : " وزيد (كذا) فى اقطاعهم ، وزيد كل أمير ما معه من العدة عشرين فارسا (كذا) ، وأنفق الأموال ، وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك " (٤)

الخدمات العسكرية فى الاقطاع الأيوبى :

من الثابت فى تطور النظم الاقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، أن الاقطاع أتخذ طابعا حربيا فى بعض الدول التى انشغلت بالحرب والجهاد ، ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة الى محاربين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٦ ، سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) ابن أيبك : الدر المطلوب جـ ٧ ص ٣٣١ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ص ٣٣٨ ، ابن العميد : أخبار الايوبيون ص ١٥٤ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٧ .

(٤) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٧ الورقة ٩٠ ، حسنين ربيع ، النظم المالية، ص ٣٢ .

وفرسان مزودين بالسلاح والخيول وهذا يتطلب أموالا ونفقات لا تتحملها مواردهم ، فيعمدون الى توزيع الاراضى فى صورة اقطاعات على الأمراء والقواد فى مقابل ما يؤدونه من خدمات عسكرية للحكام .

وهذا المبدأ الذى يفسّر المؤرخون فى ضوئه تطور النظام الاقطاعى فى الغرب الاوربى منذ أيام شارل مارتل ينطبق أيضا على النظم الاقطاعية التى عرفت أيام السلاجقة والأيوبيين .

وهكذا عرفت مصر زمن الايوبيين الاقطاع الحربى ، ويمكن القول أن صلاح الدين بتطبيقه النظام الاقطاعى الحربى فى دولته قد وفّر على نفسه مهمة تزويد جيشه كله ، بالسلاح والعتاد والمؤن ، فقد كان على صاحب الاقطاع أن يأتى بجيشه الى ساحة القتال مزودا بكل مستلزمات الحرب ، فضلا على ما كان يسهم به المقطع من أموال وعتاد ومؤن لخدمة الجيش السلطانى الملازم لصلاح الدين (١).

وكان صلاح الدين — كما رأينا — يقطع الاقطاعات لامرائه فى مقابل التزامهم بواجبات عدة منها أن على كل أمير اعداد فرقة حربية تتكون من عدد من الجند يتناسب مع ما تحت يده من اقطاع وتزويدهم بكل لوازمهم ، فاذا ما نشبت الحرب شارك الأمراء فيها بجنودهم ، فاذا ما انتهت الحرب أو جاء موسم الامطار رجع كل أمير

---

(١) استانلى لين بول : سيرة القاهرة ص ١٧٣ ، عبدالله الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١١٠ .

بجنده الى اقطاعه . واذا ماتجدد القتال أو انقضى الشتاء عادوا بجندهم الى ميدان القتال (١) .

وتوضح المصادر مقدار اهتمام صلاح الدين باقطاعات الأجناد ، ذلك أنه عندما قدم اليه الموفق خالد رسول نور الدين لم يمتنع صلاح الدين عن اطلاعه على كل ما أراد الاطلاع عليه وقال : " هؤلاء الأجناد " فاعرضهم واثبت أخبارهم ، وتأمل اعتبار اقطاعاتهم ، ومقادير واجباتهم وقال : " لا يضبط مثل هذه الاقاليم الا بالمال العظيم " (٢) .

وكان المقطعون على أهبة الاستعداد دائما لتلبية نداء الجهاد ، فعندما وصل أسطول صقلية سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، الى مدينة الاسكندرية للاغارة عليها توافد من العساكر الاسلامية كل من كان فى اقطاعه ، وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها ، وأحسنوا القتال والصبر ، فأنزل الله نصره عليهم " (٣) .

وكان كبار المقطعين يخصصون قسما من اقطاعاتهم لبعض البارزين من أتباعهم نظير التزامهم بعدد من الجند يقدمونه لسيدهم فور الحاجة اليهم ، ليكونوا مع

---

(١) استانلى لين بول : المرجع السابق ص ١٧٣ ، عبد الله الغامدى : المرجع السابق ص ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٢) البندارى : سنا البرق الشامى ق ١ ص ١٤٧ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤١٣ .

غيرهم من الجند تحت تصرف السلطان فى حروبه[1] .

وكان الاقطاع وسيلة لدفع رواتب الجنود ، ففى مقابل الموارد المالية وغيرها مما كان يتم تحصيله من الاقطاع ، كان المقطع ملزما بعدد من الواجبات العسكرية مثل تجهيز الجند وتقديمهم الى السلطان فى أوقات الحروب ، كما كان ملزما ايضا بعدد من المهمات غير العسكرية مثل : توفير الأيدى العاملة لفلاحة الأرض . بالاضافة الى تلبية ما يطلبه السلطان من خدمات شخصية .

ونظرا الى أن الجهاد الاسلامى سمة واضحة من السمات التى اتصف بها هذا العصر فقد كانت الواجبات الحربية للمقطع من أهم تلك الواجبات[2] . وكانت مسئولية المقطع تتركز فى الانفاق على جنوده ، والاستعداد الدائم للالتحاق بالجيش النظامى وقيادة جنده فى الحملات التى يكلف بالاشتراك فيها . فاذا طالت فترة الحرب أصبح لزاما على الجميع أن يجهزوا احتياجاتهم من المؤن ، وعندئذ تقام " سوق العسكر " لهذا الغرض ، فعندما وصل صلاح الدين بجيشه الى "السدير" فى طريقه الى الرملة ، فى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م . أعلن فى المعسكر أن على جميع الجيوش ان تتزود بالمؤن الكافية لمدة عشرة أيام أخرى ، فأقيمت " سوق العسكر "

---

(١) ستانلى لين بول : سيرة القاهرة ص ١٧٣ .

(٢) سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك ص ١٦٥ ، الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١٠٥ ، سيد أوهل : ايام صلاح الدين ص ٩٨ ،

لهذا الغرض . ومن الطريف أن ارتفاع الاسعار اغرى عماد الدين الاصفهانى ببيع ما يزيد على احتياجاته مما كان معه من المؤن .(١)

وهكذا تتضح مسئولية كل جندى عن توفير احتياجاته من المؤن من " سوق العسكر " ، فاذا كان من جند الجيش النظامى كان عليه ان يشترى ذلك مما يأخذه من السلطان من راتب ، أو أن يدبّر المقطع ذلك اذا كان الجندى تابعا لأصحاب الاقطاعات طبقا لما كان ينصّ عليه صراحة فى براءة الاقطاع .

ويشير القلقشندى الى براءة من العصر الايوبى تنصّ على أن يعدّ المقطع نفسه بقدر ما يستطيع للخدمة العسكرية ، وعلى أن يحتفظ بالرجال الشجعان والخيول تحت امرته وأن يستبعد الجبناء .

وفى توقيع آخر مشابه نصّ بالاضافة الى ما سبق على الاهتمام بالمظهر الخارجى للفرسان وخصوصا فيما يتعلق بالملابس والمعدات .(٢)

ولم تشر المصادر التاريخية الى تخصيص مكافأة أو تعويض للأمراء أصحاب الاقطاعات فى العصر الايوبى ، ويبدو أن السلطان كان يفضّل أن يمنح الاقطاع بدلا من الراتب الاضافى ، وعلى ذلك فقد كان الاقطاع هو المصدر الاساسى

---

(١) Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, PP. 32-33.

(٢) صبح الأعشى : جـ ١٣ ص ٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٧ .

لمتطلبات المقطع المالية ، وكان أحيانا يمنح جزءا من الاقطاع لبعض أجناده بدلا من الراتب (١) .

اذن كان الاقطاع الحربي الايوبي مصدر الايراد الدائم للانفاق على الجيش السلطاني وجيوش الامراء الاقطاعيين ، فضلا على النفقات العسكرية المهمة للجيش بنوعية زمن الحرب (٢) .

وتشير المصادر الى ما كان من استعداد المقطعين العسكري وقيامهم بواجباتهم عندما تدعو الضرورة الى ذلك ، دون استدعاء من السلطان . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :

أنه عندما أغار الفرنج على البقاع سنة ٥٧٢هـ . خرج شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم للتصدى لهم وكان واليا على بعلبك ومقطع أعمالها « فقتل منهم وأسر اكثر » (٣) .

وفي السنة نفسها توجّه الناصر صلاح الدين الى الاسكندرية لاستكمال عمارة استحكاماتها وأسوارها ، وأمر بتجديد الاسطول واصلاح سفنه وشحنها بالمقاتلة الذين كان قد أقطعهم الاقطاعات بدل الرواتب . وأمرهم

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 33.

(٢) عبدالله الغامدي : استرداد بيت المقدس ص ١١٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٧ ـ ٤٨ ، أبو شامة : الروضتين جـ١ ق ٢ ص ٦٦٩ .

بغزو جزائر البحر (١) .

وهذا يؤكد لنا الدور المهمّ الذى قام به الاقطاع الحربى فى تجهيز القوات واعدادها لتوحيد الجبهة الاسلامية أو للدفاع عن البلاد ضد الاخطار الخارجية .

وفى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م . توافدت الجيوش على صلاح الدين وتواصل وفود مقطعو البلاد وترادفوا امدادا بعد امداد ليؤازروه عندما قام بمحاصرة الموصل (٢) .

وهكذا يتضح أن قيام المقطع بتأدية الخدمات العسكرية كان من المهام الاساسية التى كان يلتزم بها المقطع ، فقد كان عليه أن يخرج تلبية لأوامر السلطان فى عدد من الجند المجهزين فى وقت الحرب .

أما فى حالة اخلال المقطع بواجباته ، فقد كان جزاؤه استرداد اقطاعه وحرمانه منه ، وكذلك الأمر فى حالة الهزيمة ، فعندما هزم الجند الأيوبى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م . أمام الصليبيين بقيادة أرناط صاحب الكرك فى موقعة الرملة عاقبهم صلاح الدين باخراج اقطاعاتهم عنهم (٣) . وكذلك فعل عندما وقع الامر نفسه

---

(١) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٦ .

(٢) الاصفهانى : البرق الشامى جـ ٥ ص ١٥ .

(٣) المقريـزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

فى عكا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م • اذا استعاد اقطاعات أمراء الأجناد الذين تخاذلوا وفروا من المعركة • (١)

وعلى تلك السياسة نفسها سار العزيز عثمان بن صلاح الدين فقد استرد اقطاعات الأمراء الذين أقاموا فى الشام ، واسترد اقطاعات جماعة آخرين أخلوا بواجباتهم • منهم : الفقيه الكمال الكردى ، والأمراء : الجناح ، وعلكان ، ومجد الدين الفقيه ، وصهره عز الدين • (٢)

ولقد كان الاقطاع هو المصدر الوحيد للدخل للأمير ، ولذلك فان مقدار حجم الخدمات وعدد الجند الذين يجب عليه تقديمهم كان يتحدد وفقا لدخل الاقطاع ويتناسب معه •

ومما يذكر أنه عندما صارت السلطنة الايوبية الى الملك العادل أبى بكر ابن أيوب فى سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م عمد الى التحقق من أوضاع المقطعين ومدى استيفاء عدد ما التزموا به من جند • (٣)

ومن ناحية أخرى التزم سلاطين الايوبيين بقاعدة أن ما يقدمه المقطع من

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٣٥١ ـ ٣٥٣ •
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١٩ •
(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٥٥ •
Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 35.

جند لا يزيد على امكانيات اقطاعه ، فقد كان اقطاع الأمير شمس الدين العادلى بمصر لا يتحمل الآعداد مائتين وخمسين فارسا ، ولما أراد الملك الكامل محمد زيادة عدد جند هذا الامير الى ثلاثمائة وخمسين فارسا ، زاد اقطاعه سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بأن أضاف الى اقطاعه الموزر ليتمكن من الانفاق على الفرسان المائة الآخرين (١) .

ولما أخذ الصالح نجم الدين أيوب الكرك فى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م من ولدى الناصر داود عوّضهما عن ذلك ، بأن أنعم على الملك الظاهر باقطاع فى مصر من مائتى فارس ، وأنعم على أخيه الملك الماجد باقطاع آخر من ألف وخمسمائة جندى .

ويبدو أن ربط عدد الجند بامكانيات الاقطاعات قد استمرّ فى خلا عهد المماليك (٢) .

ومن الواضح أن الحاجة الى الخدمة العسكرية هى التى أدت الى منح الاقطاعات لرؤساء القبائل العربية فى مصر ، فقد كان على هؤلاء الرؤساء مراقبة الطرق الرئيسية وحراستها بالاضافة الى التزامهم بتزويد السلطان بالفرسان فى الحالات الطارئة ، أو عندما يطلب منهم السلطان ذلك ، كما كان عليهم نقل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ .

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 36.

المحصولات لتغذية الخيول فى محطات معيّنة ، وتقديم عدد من الخيول فى كل عام هدية الى السلطان ، ففى سنة ٥٦٩هـ . " أقطع السلطان أمراء العرب لئلا يتعرّضوا للحجاج " . (١) وفى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م . أنعم السلطان صلاح الدين ببعض الاقطاعات على قبيلة ثعلبة (٢) ، مما يدلّ على أن صلاح الدين وغيره من سلاطين الايوبيين كانوا يمنحون الاقطاعات للقبائل فى مصر وغيرها ، ولقد كان لسائر القبائل العربية اقطاعات متفرقة فى الديار المصرية (٣) .

وقد استهدف صلاح الدين من اقطاعهم تلك الاقطاعات المحافظة على الأمن ، واشراكهم معه فى الجهاد ، ولكن طالما خانوه وحملوا الغلال الى بلاد الفرنج فكان لذلك يصادر اقطاعاتهم (٤) ، ففى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م . صادر اقطاعات قبيلتى ثعلبة وجذام (٥) ، فى اقليم الشرقية حتى بلغ جملة ما صادره من اقطاعات العربان نحو ثلثى اقطاعاتهم (٦) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٥ .

(٢) المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ص ٢٣ ــ ٢٥ . ،

(٣) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢٢ ــ ٢٧ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٧ الحاشية رقم ٤ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والصفحة ،
Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 35,

(٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٣ .

ومن الجدير بالذكر أن ذلك لم يمنع السلطان العزيز عثمان من الاغـداق على القبائل العربية وخاصة قبائل اقليم الشرقية بعد ذلك . ففى سـنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م . أنعم على الشريف ابن ثعلبة الجعفرى باقطاع كان دخله قد بلـغ ستين ألف دينار فى السنة .(١)

وظلّ المقطعون يقدّمون الخدمات العسكرية للايوبيين وقت الحرب بعد عهد صلاح الدين ، ففى سنة ٥٩٣هـ . " كان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامه وهـو مقطعها فكان يرسل الشوانى تقطع ، الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة الى الملك العادل بدمشق ، والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك " .(٢)

ومما هو جدير بالذكر أن الصراع بين أبناء البيت الايوبى كان له أثر كبير فى انقسام المقطعين بين أطراف الصراع المختلفة وتشتتهم .

ففى سنة ٥٩٦هـ. " سار الافضل الى مصر فوصل بلبيس ، فأقام بهـا ووصلته الاخبار بأن عمه الملك العادل قد سار قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية ، وقد حلّفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد ، وهو المدبّر للملك الى أن يكبر . فساروا على هذا ، وكان عسكره بمصر قد تفرّق عن الافضل ، فسار

---

(١) Rabie: Op. Cit. , P. 35.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

كل منهم الى اقطاعه ليربعوا دوابهم ، فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد ، فأعجله الأمر على ذلك ، ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه . ووصل العادل ، فأشار بعض الناس على الافضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة ، وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ، ففعل ذلك ، فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السائح فى طرف البلاد ، ولقيه العادل قبل دخول البلاد سابع ربيع الآخر ، فانهزم الأفضل ، ودخل القاهرة ليلا ". (١)

وتؤكد لنا هذه الحادثة مدى أهمية وخطر الخدمات العسكرية فى الاقطاع الأيوبى ، ولادراك سلاطين بنى أيوب ذلك ، كانوا يقطعون أمراء دولتهم الاقطاعات الاضافية ، ففى سنة ٦٢٨هـ ، أقطع الملك الكامل مدينة سلمية لأسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ، وذلك لأن " الملك الكامل لما خرج من مصر الى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له ، وكان له أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه ". (٢)

واذا تعرضت منطقة أو مدينة للخطر الصليبى سارع المقطعون الى القيام بدورهم فى الجهاد والذود عن ديار الاسلام . ففى السنة نفسها " قصد الفرنج مدينة جبلة وهى من ضواحى حلب الشهباء ، ودخلوا اليها وأخذوا منها غنيمة وأسرى . فسير أتابك شهاب الدين العساكر مع أمير كان اقطعها ، فقاتل الفرنج

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ١٢ ص ٥٠٤ .

وقتل منهم كثيرا ، واسترد الأسرى والغنيمة " (١) .

الخدمات المدنية فى الاقطاع الأيوبى :

كانت الواجبات غير الحربية التى يلتزم المقطع بأدائها تشمل تنفيذ المراسيم السلطانية التى يصدرها السلطان الايوبى ، واقرار الأمن فى داخل الاقطاع ، والنظر فى مصالح الرعية داخل الاقطاع (٢) ، الى جانب القيام بكل ما يطلبه السلطان من خدمات ، وتوزيع البذور (التقاوى) على الزراع فى الاقطاع ، ومتابعة اعمال الرى والزراعة فى الأرض الزراعية وبعض الخدمات الخاصة بالسلطان فى الاقطاع (٣) .

وكانت الاقطاعية فى بعض الاحيان تتكون كلها أو بعضها من منطقة من الأرض يتعهدها المقطع بالزراعة والاستصلاح وحفر القنوات الجديدة واقامة

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٥٠٤ .

(٢) ابن شاهنشاه الأيوبى : مضمار الحقائق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٣) وكانت هذه التقاوى تمنح من جهة السلطان للمقطع مع الاقطاع لضمان سلامة المحصول ، وكانت من أفضل الأنواع ومن أكثرها ملاءمة لانتاج المحصول الجيد . وكان من الواجب على المقطع ان يترك التقاوى فى الاقطاع لضمان محصول طيب لمن يخلفه عليه .
حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٣٤ ، عبد الله الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١٠٧

الجسور ، وكان يطلق عليها " زائد القانون " [١] . وكان المقطعون يبذلـــون كل جهد هم لتحسين أراضيهم [٢] .

ومن الجدير بالذكر أن المقطعين فى بعض الاحوال كانوا يرســـــلون الأجناد لفلاحة الأرض فى حالة عدم توفر الفلاحين اللازمين للقيام بذلك وخاصة فى زمن الاوبئة التى وقعت عدة مرات فى خلال حكم الأيوبيين .

وقد ذكر ابن وصيف شاه والمقريزى وابن اياس أنه فى خلال الوباء الذى حدث فى عهد السلطان الايوبى العادل فى عام ٥٩٦ ــ ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م توجه الأجناد لفلاحة الارض وحصاد المحصول فى الاقطاعات [٣] .

وقد استدل على مدى ما كان المقطع وأجناده يقومون به من الأعمـــال الزراعية وجمع الضرائب بالزيارات المتكررة التى يقوم بها المقطع لاقطاعيتـــه وخاصة وقت الحصاد ، وكان ذلك يسبب بعض الصعوبات للسلاطين ، فقـــد كانوا يتفادون الدخول فى حروب فى خلال تلك الفترات ، أو يعملون على انهـاء

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 68.

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 68.

(٣) ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبـــار الديار المصرية ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٥٧٣١ ، ورقة ١٥٥ ، المقريزى : اغاثة الأمة : ج١ص٣١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٧٦ .

العمليات العسكرية بسبب ذلك حتى تتهيأ الفرصة للمقطعين لكي يعودوا الى اقطاعاتهم ويشرفوا على جمع محصولاتهم .

ومن أوجه النقص في التنظيم الاقطاعي الايوبي أن المقطعين كانوا يذهبون هم أنفسهم الى اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحصول وتشوينه (تخزينه) . وقد التزم السلاطين بذلك فكان اذا خرج الواحد منهم للحرب عمل حسابا لمواعيد الحصاد ، وعلى سبيل المثال عندما كان صلاح الدين في الشام في سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م . سمح للجيوش المصرية بالعودة الى مصر للقيام بجمع المحصول ، على أن يبادروا بالعودة الى الشام بمجرد انتهاء مهمتهم (١). وقد تعرّض صلاح الدين في هذه المرة لهجوم جيش الزنكيين ، وكاد الأمر ينتهي بهزيمة صلاح الدين بسبب عودة قسم كبير من الجيش الى مصر .

كما كان الموقف صعبا لاضطرار صلاح الدين الى محاربة الصليبيين في تل السلطان في شوال سنة ٥٧١هـ / أبريل ١١٧٦م . ولم ينقذ الموقف الا عودة قواته من مصر في ذلك الوقت (٢).

ومما يذكر أيضا أن أطراف المؤامرة التي شارك فيها الشاعر عمارة اليمني

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .
Hassanein Rabie: The Financial System of Eygpt, P. 69-70.

(٢) Ibid, PP. 69-70.

للقضاء على الأيوبيين واعادة الحكم الفاطمى كانوا قد اختاروا موسم الحصاد موعدا (١) لتنفيذ مؤامراتهم ، ففى ذلك الموسم تتفرق العساكر الأيوبية وجميع المقطعين فى اقطاعاتهم لجمع المحصول (٢) .

وكان شق الترع والقنوات واقامة الجسور وصيانتها فى داخل الاقطاعية من الواجبات غير العسكرية المهمة للمقطِع . واذا كان المقطع مسئولا عن الجسور الخاصة الواقعة فى اقطاعه ، فان السلطان كان مسئولا عن الجسور العامة ، ولذلك عرفت باسم الجسور السلطانية ، وهذه يتولى السلطان انشاءها وتعهدها بالمراقبة والاصلاح ، وكذلك الحال بالنسبة الى المقطع فقد كان عليه أن يتولى مسئولية ما يقع منها داخل اقطاعه ويلتزم بتدبير المحافظة عليه من دخل اقطاعه (٣) .

ولأهمية الجسور فقد عهد صلاح الدين بها الى الأمير قراقوش الأسدى ليتولى تفقدها والعمل على صيانتها (٤) .

وفى حالة انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر فاذا كان الأول ~~قد قام بالانفاق~~

---

(١) أنظر ، محمد عبد العال احمد : الايوبيون فى اليمن ، ص ٧١ ، ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٢١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤٨ ـ ٤٥٠ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٦ ـ ١٧ ،
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣٨ ، ٨٣٤ .

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦٦ .

قد أنفق شيئا من مال اقطاعه فى اقامة جسر لعمارة لسنة التى انتقل المقطع فيها ، استعيد له نظير منفقه من المقطع الثانى ، وكذلك كل ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره كان له استعادة نظيره[1] . مما يؤكد أن المقطع الأول كان يحق له مطالبة المقطع الجديد بنفقات اصلاح الجسور البلدية فى سنة الانتقال .

ويحدثنا المقريزى فى كتابه : " اغاثة الأمة بكشف الغمة " أنه فى أوقات الأزمات الاقتصادية والأوبئة ونتيجة لارتفاع ايجارات الاراضى الزراعية وارتفاع أسعار المحصولات الزراعية كالقمح" اشتدت وطأة الولاة والعمال على أهل الفلح وكثرة المغارم فى عمل الجسور وغيرها "[2] .

وأما الجسور السلطانية أو " الجسور الكبيرة " التى كانت تقام لحساب الولايات فانها لم تكن من مسئولية المقطع من الناحية النظرية ولكن من الناحية العملية . وخاصة فيما بعد — فى العصر المملوكى — فقد كان المقطع يساعد السلطان فى اقامة هذا النوع من الجسور بتقديم العمال ، والحيوانات والمعدّات[3] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) المقريزى : اغاثة الامة ص ٤٦ .

(٣) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P.70,71.

وطبقا للنظام الايوبى كان المقطعون يشتركون كذلك فى حفر بعض قنوات النيل أو تنظيفها ، ففى عام ٦٢٨هـ / ١٢٣١م . أمر السلطان الكامل الأيوبى أمراءه وأجناده بحفر قناة فى المنطقة الواقعة بين مصر (الفسطاط) وجزيرة الروضة لتسهيل حركة الملاحة ولمساعدة الناس فى نقل الماء فى فترات انخفاض النيل . وقد استمر اشتراك المقطعين والاجناد فى حفر القنوات وتنظيفها فى عهد المماليك بعد ذلك .(١)

الوظائف فى الاقطاع :

استلزم الأمر فى النظام الاقطاعى تخصيص بعض الوظائف فى الاقطاع حيث يتولى المقطعون الانفاق عليها من الرسوم الكثيرة التى يجمعها المقطع من اقطاعه بالاضافة الى المقرر على الأراضى من خراج .(٢)

ومن هذه الوظائف : وظيفة المشرف على أوقاف القرية .(٣) وحارس النهر وكان يسمى " خولى البحر " اشارة الى قيامه بصيانة شواطئ الأنهار والترع .(٤) و " خولى الاقصاب " .(٥)

---

(١) Rabie, Op. Cit., P. 71.

(٢) السيد الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الاوسط ص ١٤٤ .

(٣) النابلسى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٣ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٣٣

ويشير القلقشندى الى واجبات المقطع فى النظام الاقطاعى الأيوبى فى اقطاعه فى نص أورده عن ولاية ناحية واقطاع بلادها لأمير من أمراء البيت الأيوبى نظير خدمات حربية أدّاها .

ويلاحظ أن التوقيع أكدّ على المقطع ضرورة اتباع العدل والأمر بالمعروف، وصون الاقطاع بالوسائل المستخدمة آنذاك ، وفى ذلك دلالة أيضا على أن المقطع كان صاحب السلطة القضائية فى اقطاعه . فضلا على ما كان له من سلطات ادارية ومالية فى ادارة اقطاعه.(١) وكان يتولى القيام بذلك بنفسه أو عن طريق مندوبيه أو موظفيه .

وقد دأب الولاة المقطعون على ارسال التقارير المتوالية الى السلطان الأيوبى ليخبروه بأحوال اقطاعاتهم ، ومثال ذلك التقرير الذى أورده النويرى . وقد بعث به الأمير سيف الدين سنقر الدوادار العادلى متولى الاعمال القوصية الى السلطان الكامل . وشمل حوادث حريق مدينة قوص فى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م . وفيه خسر التجار ما قيمته خمسمائة ألف دينار .(٢)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٣ ــ ٣٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ الورقة ٢١ ــ ٢٢.

تحصيل الضرائب والرسوم الاقطاعية :

كان الاقطاع فى عصر الايوبية وسيلة من وسائل جمع الضرائب . فقد كان جزء كبير من الضرائب يجمعه المقطع من الاقطاعية لتدبير نفقات جنده ، والمصروفات المتعلقة بالرى وبزراعة أراضى الاقطاعية (١) . ويبدو أن الضرائب فى تلك الفترة كان نوعين :

الأول : يجمع تحت اشراف الدواوين المالية بالنيابة عن السلطان مثل : الزكاة ، وضرائب الجوالى (٢) ، والمواريث الحشرية .

والآخر : يجمعه المقطع من أجل نفقاته ونفقات جنده ، مثل : ضرائب المراعى (٣) ، والضرائب الهلالية ، وغيرها (٤) .

وكان سلاطين الايوبيين أحيانا يمنحون بعض الضرائب المذكورة أو كلها

---

(١) Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, P. 41.

(٢) المقصود بالجوالى ، جزية الرؤوس لغير المسلمين .

(٣) نوع من الرسوم التى كان يتم تحصيلها فى عصر الدولة الأيوبية .

(٤) Hassanein Rabie; The Financial System of Egypt, P. 41.

للمقطع ، وعرف هذا النهج باسم " اقطاع خاص " .

على انه يجب التفريق بين الاقطاع الادارى وهو اقطاع يمنح بشكل خاص للأمراء والاقارب ، أو الأمراء العظام من علية القوم ، وبين الاقطاع البسيط للجنود العاديين (١) .

وربما كان الاقطاع الخاص يعني أن للمقطع الحق في جمع الضرائب ، شاملة لحصة السلطان بدون أن يتقاسمها مع الاجناد ، ويؤيد ذلك ما حدث في عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م . اذ أرسل الامير صارم الدين الى الفيوم — وكانت قد أقطعت له منحه خاصة — يأمر بجمع الضرائب . ويعلق المقريزى على ذلك بأن الضرائب التى كانت تجمعها الدولة قد الغيت ويقى صارم الدين هو المستفيد الوحيد بكل عائدات الفيوم (٢) .

ومن المعروف أن الاقطاع الخاص لا يشمل حق الملكية ، فقد ذكر المقريزى أن صلاح الدين جعل فى السنة نفسها ٥٧٧هـ / ١١٨٢ م . اقليم الفيوم لحساب اقطاعا خاصا بعد تعويض المقطعين السابقين (٣) .

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 42

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٣ ،
Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, P.42

وفى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ٠ أناب صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه عنه فى مصر ، ومنحه الاسكندرية ودمياط اقطاعين بالاضافة الى البحيرة والفيوم وبوش وغيرها (١) ٠ ولما كان ذلك الأمر بمثابة منحة خاصة فقد قام تقى الدين بجمع عائدات اقطاعه لنفسه ٠ فلما توفى تقى الدين عمر أراد ابنه الملك المنصور الاحتفاظ بما كان لأبيه ، ولكن صلاح الدين لم يجبه الى ذلك ، ولم يسمح له بعد أن تدخّل الملك العادل الا بحماة وسلمية والمعرّة ومنبج وقلعة نجم ٠ واستعاد صلاح الدين البلاد الشرقية وما اليها وأقطعها أخاه الملك العادل فى مقابل ما كان له من اقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ، ونصف خاصه بمصر ، وعلى أن يقدّم فى كل عام ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء الى القدس (٢) ٠

وفى عهد السلطان الأيوبى الكامل استخدم اصطلاح " اقطاع " دربست " فى مصر للاشارة الى تعيين الاقطاعية لمقطع واحد ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٥٢ ، المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ٠

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨١ ٠

يقوم بجمع الضرائب لنفسه من الاقطاعية شاملة للضرائب الخاصة بالسلطان . ففى عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م ، منح السلطان الكامل الفيوم للأمير فخر الدين عثمان ابن قزل أستاذ الدار ، "دربستا" بما فيها من مخازن وحقول قصب السكر وأبقار ومعدات زراعية ، كما منحه حق تعيين النواب والموظفين فى هذا الأقليم . ومما يجدر ذكره ان اصطلاح " دربستا " قد بقى مستخدما بالمعنى نفسه فى خلال فترة حكم المماليك .

وأما الضرائب غير الزراعية فقد كانت أحيانا يمنح حق جمعها فى صورة اقطاعات منذ حكم صلاح الدين فما بعده حتى الروك الناصرى فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م.(١)

ويبدو أن هذا النوع من الاقطاع كان يمنح فى خلال عهد صلاح الدين بصفة رئيسية لأفراد من البيت الأيوبى ففى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م منح

---

(١) Rabie, Op. Cit., PP. 42- 43.

صلاح الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة اقطاعا لأبيه نجم الدين أيوب كما منح مدينة قوص ، وأسوان ، وعيذاب لأخيه شمس الدولة توران شاه (١) . ثم زاده في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م . مدينة بوش ، والجيزة وسمنود وأقاليم أخرى (٢) ثم منحه في عام ٥٧٤هـ / ١١٧٩م . الاسكندرية ، فأقام بها الى أن توفى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م .

وكان المقطع يجمع لنفسه بعض أنواع الضرائب طبقا لما نصّ عليه منشور اقطاعه . وسواء أكان الاقطاع تابعا للسلطان أم لأحد أبناء البيت الأيوبي أم لأمير من أمراء الأجناد ، كان المقطع يقوم بتحصيل ما يغلّه الاقطاع من الأموال الخراجية ، وما يتبعها من أموال الزكاة والجوالي والهلالي (٣) ، فضلا عن رسوم كثيرة يجمعها المقطع من اقطاعه ، بالاضافة الى المقرر على الأراضي من خراج ، وذلك للانفاق منها على الأمور المتعلقة بالاقطاع وبعض الوظائف ، ويدخل في قائمة تلك الرسوم :

رسوم الأجران ، ورسم الحصاد ، ورسم القلقاس ، ورسم

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤١٢ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٦ ، الورقة ١٠٩ ، وأبو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) أبوشامة : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) السيد الباز العريني : الاقطاع في الشرق الاوسط ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

الجراريف الخاص باصلاح جسور القنوات (١) . ورسم شد العين ، ثم رسم شد الاحباس للمشرف على أوقاف القرية (٢) ورسم جزر ، ورسم تسوم ، وسدس المراعي ، وسدس الكيالة ، ورسم الاصطبلات السلطانية ، ورسم المعصرة ، ورسم الفروج ، ورسم الاتبان (٣) ، ورسم الخفارة لجماعة البدو المحيطيين بالقرى اتقاء لشرهم (٤) .

هذا كله فضلا على مقرر حارس النهر (خولى البحر) لقيامه بصيانة شواطئ الانهار والترع . وكانت العادة أن يؤدى اليه سكان القرية مقررا يتراوح بين اردب وأردبين من القمح .

ويضاف الى ذلك مقرر الجسور الذى كان المقطعون ينفقون منه على اقامة الجسور البلدية الخاصة بناحية كل منهم (٥) .

---

(١) النابلسي : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٣ .

(٢) النابلسي : نفس المصدر ص ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١٤٠ .

(٣) النابلسي : نفس المصدر ص ٤٣ ، ٥٢ ، ٦١ .

(٤) النابلسي : نفس المصدر ص ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٧ . هذه الرسوم قد جرى الأمر فى الدولة الايوبية على تحصيلها ، طبقا لما ينص عليه فى منشور الاقطاع .

(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٢ .

أما رسم الاتبان فكان يقسّم ثلاثة اقسام : قسم للديوان ، وقسم للمقطع ، وقسم للمزارع . ويؤدى المزارع ذلك الرسم عينا ، الا اذا رغب فى دفع مقابلة نقدا على أساس أربعة دنانير وسدس دينار لكل مائة حمل .(١)

وأما رسم الفروج (المقرر على الدجاج) فكان يقسم أيضا الى ثلاثة اقسام : دجاج للدولة ، ودجاج للمقطع ، وفائض يسمى أتعاب التربية وهو القسم الثالث، وكان المقطعون كثيرا ما يأخذون أكثر من نصيبهم المقرر .(٢)

وأما رسم المستخدمين فيبدو أنه كان يدفع عينا أو نقدا برسم موظفى الدولة أوالسلطان .(٣)

وكان سلاطين الأيوبيين يعملون على حماية الفلاحين مما قد يلحقه بهم أصحاب الاقطاعات من ظلم وجور ، فقد حدّد السلاطين الايجارات والجبايات التى يدفعها الفلاحون للمقطع ، ولذلك كان الاقطاعيون فى العصر الايوبى أكثر عدالة من اقطاعى الغرب الاوربى مثلا .(٤)

---

(١) ابن مماتى : نفس المصدر ص ٣٤٤ .

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٨٤ .

(٣) النابلسى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٨٣ ، ١٢١ ، ١٣٦ .

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦٦ .

كما التزم المقطعون الأيوبيون بأن يؤدوا من حصيلة الأموال التى كانوا يجمعونها ما هو مفروض على اقطاعاتهم من التزامات للدولة . مثل : الزكاة وضرائب الجوالى وغير ذلك من الرسوم . وما يخص الدولة منها الأتبان والفراريج .[١]

حفظ الأمن فى الاقطاع :

من بين الخدمات المدنية فى الاقطاع الايوبى التى كان على المقطع ان يقوم بها : اقرار الأمن فى داخل الاقطاع ، والنظر فى مصالح الرعية فيه . وكان يساعد المقطع فى اداء هذا العمل عدة اشخاص : فى مقدمتهم : "صاحب وظيفة الشادّ " ويطلق عليه : " المشد " او " الشادّ " ، وفى بعض الأحيان يكون فى الاقطاع عدة مشدين .

وكان المشدّ يتمتع بسلطة كبيرة فى الاقطاعية ، فقد كان يجمع المتبقيات من الضرائب وخاصة من المتهربين من أدائها ، وكان مسئولا عن فلاحة الاقطاعية ، وضبط الاشخاص الذين يغادرونها بدون اذن ،[٢] وهم الذين أطلقت عليهم المصادر المعاصرة لتلك الفترة لفظ " المتسحّبين " ، وكان عليه أن يعيّن مراقبين وحراسا على الطرق . وكان من سلطاته معاقبة الخارجين على النظام .

---

(١) السيد الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الاوسط ص ١٤٥ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١ ـ ٢ .

وبالاضافة الى " المشدّ " كان هناك مسئولون آخرون فى الاقطاع ، مثل " خولى البحر " ، وكانت مهمته مراقبة النهر والترع ، والعمل على صيانة قنوات الرى والمحافظة عليها (١) .

ويبدو أن " خولى البحر وكان يتقاضى راتبه عينا ، اذ كان له على المزارعين فى بلدة " العدوة " — كما يقول النابلسى — " أردب قمح واحد " (٢) .

ومن الواضح أن رسم " خولى البحر " كان يزيد وينقص تبعا لحجم القرية ومدى اتساع زمامها ، ويشير النابلسى أيضا الى أنه قد كان لخولى البحر " على مزارعى قرية " اطسا " — من قرى الفيوم — " ثلاث ويبات " (٣) وذلك لأنها كانت أصغر مساحة وزماما وايرادا من بلدة العدوة .

وهناك أيضا المسئولون الذين كانوا يقومون بمراقبة شئون الفلاحين ويسمى الواحد منهم " خولى الأقصاب " .

ويذكر النابلسى عن بلدة العدوة فى شرق الفيوم أنه " كان المقرر عليها لأولاد نجم بن رحيم خفراء الطريق خمسين فدانا ، ولخفراء الناحية ثمانية

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 67

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ٣٣ .

(٣) النابلسى : تاريخ الفيوم ، ١٤٦ — ١٤٨ .

فدادين • وخولى الاقصاب ستة فدادين " •(١)

كما أشار الى " رسم خفراء البلاد " وما رتّب لكل منهم عند تعرّضه لذكر بلدة " منية كريس " الواقعة فى شمال الفيوم ، فقد قال عن رسم " خولى البحر " بها انه نصف اردب قمح • " والذى رتّبه المقطع بها من الرزق تسعة فدادين طين سواد ، للمشايخ ستة فدادين وللخفراء ثلاثة فدادين " (٢) وكانت مهمة هؤلاء الخفراء حراسة الاقطاعات والمزارع والمنازل والطرق داخل الاقطاعات •

وكانت هناك أيضا وظيفة " أرباب الدرك " ، وهم الذين كانوا يعملون حراسا ورقباء أو رجال شرطة • (٣)

وتعدّد هذه الوظائف يدلّ على مدى اهتمام السلاطين والامراء الأيوبيين بحفظ الأمن والنظام داخل الاقطاعات • وهذا يعود بالخير على الزراعة ، ويؤدى الى تنمية الاقتصاد الأيوبى •

وأخيرا ، فانه بسبب تركيز المصادر الأيوبية على الصراع الاسلامى الصليبى وبيان الجهود التى بذلها صلاح الدين وسلاطين البيت الأيوبى من بعده باعتبار

---

(١) Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, P. 67

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ٣٣ •

(٣) النابلسى : نفس المصدر ص ١٤٦ ـ ١٤٨ •

أن الدولة الأيوبية دولة عسكرية فى المقام الأول — كان استخلاص مادة موضوعنا من الأمور الصعبة والشاقة ، وكان الجهد مضاعفا للوصول الى المعلومات المتعلقة بالخدمات المدنية فى الاقطاع الأيوبى .

. . . .

الفصل الثالث

حقوق المقطع في الإقطاع الأيوبي

كان للمقطع فى العصر الأيوبى حقوق ثابتة مثلما كانت عليه واجبات عسكرية ومدنية وخاصة يؤديها الى السلطان والسلطنة .

ومن بين حقوق المقطع أنه كان له أن يجمع فى محيط اقطاعه الخاص قدرا محدودا من الضرائب لنفسه ولجنده فى مقابل خدماته العسكرية وغير العسكرية ، ولكنها لم تكن محدودة فى اقطاعات الدربستا (١) .

وكان من حق المقطع أن يتنازل عن الاقطاعية وخاصة اذا كان دخلها لا يكفى نفقاته ، أو لأسباب سياسية (٢) ، وكان الأمير الذى يطرد

---

(١) الدربستا لفظ فارسي بمعنى " كامل " فاذا أقطع السلطان بلدة (دربستا) كان معنى ذلك بدون استثناء شيء منها ، فاذا كان فى الاقطاع شيء موقوف أو ملك حر لم تذكر الكلمة فى منشور الاقطاع . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٤٤ الحاشية ٧)

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P.57

من الخدمة العسكرية ويحرم من اقطاعه وعمله يطلق عليه في تلك الفترة لفظ " بطال "(١). وقد ظهر هذا الاصطلاح أول مرة في مصر سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢م. عندما منح توران شاه " أبريم " اقطاعا للأمير ابراهيم الكردى ، فذكر أبو شامة ـ نقلا عن ابن أبي طي ـ أن توران شاه أرسل معه مجموعة من البطالين (٢).

وليست لدينا شواهد على منح " البطال " معاش تقاعد بعد الغاء الاقطاعية ، ويحتمل أنه كان يمنح راتبا اذا استخدمه السلطان في مهمة أخرى (٣). وعلى سبيل المثال فقد استخدم السلطان صلاح الدين الأيوبى في عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨٢م. الجند البطالين في مقابل ثلاثة وثلاثين دينارا في الشهر لكل منهم وأرسلهم الى

---

(١) وأطلق مصطلح " البطالون " على الأمراء والأجناد العاطلين من أعمال الدولة ووظائفها واقطاعها بسبب غضب السلطان عليهم ، أو تقدمهم في السن ، أو اضطرارهم الى الاعتكاف والاختفاء . (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٣).

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ١ قسم ٢ ص ٥٣٢

(٣) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt P. 62

اليمن .(١)

وفى أثناء حصار عكا فى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م. اشترك عدد كبير من البطالين فى الأعمال الحربية فى مقابل أجر وأبلوا بلاء حسنا حتى ان مؤرخا معاصرا لتلك الأحداث وصفهم بأنهم " الأبطال البطالون ".(٢)

ومما يذكر أن استخدام الجند البطالين قد استمر فى العصر المملوكى فى مقابل ما يكلفون به من أعمال .(٣)

وكان نظام الاقطاع الأيوبى - متابعة للنظام السلجوقى - يجعل للمقطع حقوقا مالية على سكان اقطاعه روعى فيها العدالة وعدم ارهاقهم حتى لا يمس القدر الكافى لمعيشتهم .(٤)

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ١٢٩

(٢) الأصفهانى : الفتح القسى ص ٣١٤.

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٩٧

(٤) السبكى : معيد النعم ص ٤٨ ، أنظر أيضا :
Poliak, The Ayyubid Feudalism, P. 430.

غير أن ذلك لم يكن مكفولا من الناحية العملية فكثيرا ما كان المقطع يلجأ الى الضغط عليهم وظلمهم (١).

وكان للمقطع من السلطات فى اقطاعه ما يسمح له بمعاقبة غير المطيعين له من الفلاحين بالطريقة أو الأسلوب الذى يراه ، من ذلك أن بلدة بشطا من أعمال الفيوم كانت من البلدان العامرة ، ولما وجد المقطع من فلاحيها خروجا على طاعته لجأ الى تحديد كمية المياه اللازمة لرى أراضيها ، وحوّل معظمها الى قرى اقطاعه التى بقي فلاحوها على طاعته ، فكان لذلك أثره فى بوار أرض بشطا وتقلصها وتعرضها للخراب (٢).

وفى هذا دليل على مدى تحكم المقطعين واستعمالهم الشدة والقسوة والظلم فى معاملة الأهالى من الفلاحين ، وينعكس أثر ذلك على موارد القرى ، ويعود بأوخم العواقب على الانتاج الزراعى فى الاقطاع ، وهذا يوءثر فى اقتصاد الدولة كله .

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P.62

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ٦٥ - ٦٦

وقد حدث شيء شبيه بذلك لبلدة " فانو " ، فقد كانت عامرة آهلة بالسكان ، ثم تعرض أهلها لعسف المقطع فاضطروا الى الفرار ، فأدّى ذلك الى خرابها (١) .

ومن المعروف أن الفلاحين مُرتبطون بأرضهم ، ولذلك عرفوا بوصف " الفلاحين القرارية " لاستقرارهم فى قراهم وعدم مغادرتهم لها وارتباطهم بالأرض ارتباطا دائما (٢) .

وقد وصف المقريزى (٣) الفلاح بوصف " القنّ " ، فقد كان من سلطة المقطع ومعاونيه اجبار الفلاح على العودة الى الأرض اذا تركها وهرب بسبب ظلم المقطع وعسفه (٤) .

وهكذا كان للسلطات التى للمقطع أثر كبير فى ادارة الاقطاع ، وقد كان المقطع يستغلها أسوأ استغلال ، فكان يكلف الفلاحين بانجاز

---

(١) النابلسي : تاريخ الفيوم ص ١٣٣ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٤٨
(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٣
(٤) Rabie, Op.Cit.,P.63

ما يكلف به هو فى اقطاعه من خدمات يؤديها للسلطان.(١)

ومن المعروف أن اقتصاد مصر كان يعتمد فى العصور الماضية على الزراعة بوجه خاص، ولذلك كان معظم السكان وخاصة فى الريف يشتغلون بالزراعة ولهذا قامت حياتهم على الانتاج الزراعى .

ومن ناحية أخرى كان الاعتماد فيما يتعلق برى الأرض على النيل ، وكانت طريقة الرى المستخدمة هى طريقة " رى الحياض " ، فقد قسمت الأراضى الزراعية الى حياض كبيرة تغمرها مياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف المياه وتبذر البذور . وقد أدّى اتباع هذه الطريقة الى أن صار الرخاء أو البلاء مرتبطين بمقدار فيضان النهر ، فاذا كان الفيضان فى معدّله الطبيعى جاءت الزراعة وكان المحصول وافيا ، وحدث الرخاء ، ورخصت الأسعار ، أما اذا كان الفيضان منخفضا فان معظم الأراضى تتحول الى أرض بور ، فيقل المحصول وترتفع الأسعار نتيجة للقحط ،(٢) وتحدث المجاعات وتنتشر الأوبئة

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 63

(٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦١ - ١٦٢ .

وكذلك الحال اذا زاد الفيضان كثيرا فوق معدّله فعندئذ يحدث التخريب وتعم الأضرار .

ويمكن القول أن معظم الأزمات الاقتصادية فى مصر فى تلك العصور كانت ترجع الى انخفاض النيل . ففى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م. فى عهد السلطان العادل الأيوبى كان الفيضان منخفضا ، فانعدم المحصول واشتدّ الغلاء وكان الوباء فاضطر كثيرٌ من الناس الى الرحيل عن البلاد الى الشام والحجاز واليمن بل الى المغرب ومزّقوا كل ممزّق ، وبلغت الأمور - نتيجة هذا القحط - أقصى درجة من السوء حتى أكل الناس القطط والكلاب والحمير ، وقيل ان بعضهم كان يختطف الناس فيأكلون لحومهم من شدة الجوع وانعدام الطعام (١) .

ويدل هذا على ما بلغته الأحوال الاقتصادية من سوء ، وما كان الشعب بصفة عامة والفلاحون بصفة خاصة يعانون منه نتيجة للقحط .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٣ .

وقد يتبادر الى الذهن أن معاناة الفلاحين كانت تحدث فى فترات الأزمات فقط ، غير أنه فى الظروف العادية كان الفلاحون يثقلون كذلك بالالتزامات والضرائب .(١)

فمن الالتزامات التى كان على الفلاح المصرى أن يؤديها فى ذلك العصر: الخراج ، وشدّ الأجباس ، وشبّ العين ، فضلا على الزكاة ورسوم أخرى كثيرة .(٢)

وقد كان من المتوقع أن تسوء حال الفلاحين فى ظل الاقطاع لاحتمال وقوعهم تحت استغلال أمراء الاقطاع (٣) ، ولكن الدولة الأيوبية ظلت تحمى الفلاحين من الأمراء الاقطاعيين بتحديد الايجارات، وعدم اطلاق أيدى الأمراء فى الجبايات التى يدفعها الفلاحون اليهم .(٤)

---

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦٢ - ١٦٣
(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٨ - ٣١٥
(٣) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦٥
(٤) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر ص ٣٤

وهكذا كان السلطان الأيوبى يعمل على عدم اتاحة الفرصة للمقطعين لظلم أهل الضياع أو من يعملون معهم من رجالهم وأتباعهم .(١)

ولهذا حرصت الدولة الأيوبية على ايجاد الضمانات الكفيلة بعدم اطلاق أيدى المقطعين وحماية الفلاحين ، فكان التوقيع الخاص بالاقطاع فى ذلك العصر ينص على ضرورة التزام المقطع بالأمر بالمعروف، وتوفير العدالة ، وعدم ابتزاز أموال الناس . بالاضافة الى تحقيق العيش فى سلام مع من يجاوره من المقطعين .(٢)

ويبدو أن القيود التى وضعتها الدولة الأيوبية على الاقطاعيين - وخاصة فيما يتعلق بالايجارات والجبايات - قد حمت الفلاحين من العسف ، كما حدت من نفوذ المقطعين اذ التزموا بتنفيذ ما تعهدوا به للسلطان .(٣)

فتحققت بذلك راحة الفلاحين وتفرغوا لاستثمار الأرض ، فزاد دخل المقطعين

---

(١) الأصفهانى : البرق الشامى جـ ٥ ص ٥٧ - ٥٨

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٣ - ٣٤ ، جـ ١٣ ص ١٤٤ - ١٤٨ .

(٣) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٦٦ .

وأتيحت لهم الفرصة الكاملة للقيام بدورهم الحربى الذى من أجله منحـــوا تلك الاقطاعات .

أما فيما يتعلق بمكان اقامة صاحب الاقطاع ، فيبدو أن تحديـــد ذلك كان يعتمد على وضعه فى الحكومة أو الجيش معا ، فالأمـــراء ذوو الرتب العليا كانوا يقيمون عادة فى العاصمة بعيدا عن اقطاعاتهم ، أو حيثما كان السلطان ، وقد استلزم ذلك بطبيعة الحال أن يكون فى كـل اقطاع جهاز وظيفى يتولى ادارة شئونه نيابة عن المقطع .

ولم يلتزم الأيوبيون - وخاصة فى عهد صلاح الدين - أن يكون الاقطاع فى الاقليم الذى يقيم فيه المقطع ، بل لقد كان المقطع يقيم فى اقلـــــيم واقطاعه فى اقليم آخر بعيد كل البعد عنه ، ويستدل على ذلك بما ذكـره مؤرخ معاصر لتلك الفترة من أن مقطعا من الأكراد أرسل فى سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م. قصيدة الى صلاح الدين يشكو فيها من أنه يقيم فى الموصـــل واقطاعه فى قوص بصعيد مصر ، فاستجاب له السلطان واستردّ الاقطاع وعوّضه عنه بنفقة (١) .

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 63

ولا شك فى أن متحصلات الاقطاع من محصولات زراعية ، ورسوم اقطاعية وغيرها كانت تمثل مصدر الايراد الدائم اللازم للانفاق على الجيش والأسطول .

ومما يذكر أنه عندما آلت الأمور فى مصر الى صلاح الدين وجد أنواعا من الضرائب فرضها الفاطميون على السكان ، فأبقى بعضها مع ادخال تعديلات وتغييرات اقتضتها سياسته المالية ، وهى وان كانت تدرّ دخلا لم يكن اعتماده عليها بصفة رئيسية ، بل كان الاعتماد الأساسى على الاقطاع الحربى ، فقد كان يمثّل المورد الأول لايرادات الدولة لارتباطه بالخراج ، وهو الضريبة السنوية المفروضة على الأراضى الزراعية.(١) وهذه كان المزارع الأيوبى يدفعها للمقطع صاحب الاقطاع ليؤديها الى خزانة الدولة بعد استقطاع المصروفات المختلفة .(٢)

ومن المعروف أن الديار المصرية كلها بالوجهين القبلى والبحرى كانت جارية (أى : مسجّلة ومقيّدة) فى الدواوين السلطانية ،واقطاعات

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

الأمراء وغيرهم من الأجناد الآ النزر اليسير مما يجرى فى وقف ملـوك الديار المصرية السابقين ونحوهم على الجوامع والمدارس والخوانق وغيرها على قلة عائداته (١).

وكان أكثر خراج الوجه القبلى من الغلال ، وكان الغالب أن يؤخذ من القمح أو الشعير أو الحمص أو الفول أو العدس أو البازلاء أو الجلبّان عن كل فدان ما بين اردبين وثلاثة ، ويؤخذ عن كل اردب درهم أو درهمان أو ثلاثة بحسب قطائع البلاد وضرائبها فى الزيادة والنقصان فى الاردب والدرهم ، وربما كان الخراج فى بعض هذه البلاد دراهم (٢).

وقد تأثرت الضريبة الخراجية زمن صلاح الدين بعاملين :

أولهما : قيام السلطان صلاح الدين بتحويل السنة الخراجية الشمسية الى سنة هلالية لتجنب ما حدث من تأخير عملية التحويل مرتين فى أواخر العصر الفاطمى .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٠ - ٤٥١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠

وثانيهما : قيام صلاح الدين بعملية الروك الصلاحي لتعديل قسم الخراج [(١)] .

أما عملية تحويل السنة الخراجية فهو اجراء خراجي قديم في مصر ، سببه سبق الشهور القمرية للشهور الشمسية ، فيصير الخراج منسوبا الى السنة الماضية واستحقاقه في السنة التالية [(٢)] .

قال القلقشندي : بأنه جرت العادة في مصر : " أنه اذا مضى ثلاث وثلاثون سنة من آخر السنة ، حولت السنة الثالثة والثلاثون الى تلو السنة التي بعدها ، وهي الخامسة والثلاثون ، وتلغى الرابعة والثلاثون " وكأنها لم تكن [(٣)] .

---

(١) حسنين ربيع : النظم المالية في مصر ص ٤١

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٥٤

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٦٠ - ٦١ ، وأنظر المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٧٥ - ٢٨٢

وبسبب تأخر اتمام هذه العملية في أواخر عهد الفاطميين مرتين جعل صلاح الدين سنتى ٥٦٥ هـ ، و ٥٦٦ هـ . الخراجيتين كأنهما سنة ٥٦٧ هـ . الهلالية ، وكان ذلك بناء على ما أشار به على القاضي الفاضل ، القاضى أبو الحسن على المخزومي الرئيس السابق لديوان المجلس الفاطمي[1] .

وقد تبين فى أثناء اجراء الروك الصلاحى أن خراج الفدان من القمح زمن الفاطميين بلغ فى متوسطه ثلاثة أرادب ، فنقصه صلاح الدين الى اردبين ونصف فقط . أما أراضى الدلتا فكان الخراج يؤخذ منها زمن الفاطميين نقدا لا غلة ، فأمر صلاح الدين باستمرار ذلك لشدة حاجته الى المال[2] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٦٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ الورقة ١١٠ ، والمقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٢ ، المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٧ ، ١٠١ .

وقد أدخل السلطان صلاح الدين نظام البدل في جمع الخراج ، بقبول كميات من الحبوب أو البقول بدلا من القمح .(١)

ومن الموارد الخراجية التي كانت قبل الأيوبيين وأبقاها صلاح الدين : ضريبة القمح والشعير والفول والحمص وغيرها ، وكانت تتراوح بين أردبين ونصف وثلاثة أرادب على الفدان الواحد ، بينما كان المقرر على غير ذلك من المزروعات وأنواع الخضروات ضريبة نقدية تتراوح بين دينار وخمسة دنانير على الفدان (٢) ، أما ضريبة بساتين الفاكهة والكروم والأشجار فكانت تختلف من سنة الى سنة باختلاف أحوال

---

(١) (فأدّى المزارع الأيوبي اردبين شعيرا ، أو اردبا ونصف أردب فولا ، أو اردبا حمصا ، أو اردبا ونصف اردب جلبانا بدلا من اردب القمح مثلا .
وبدل اردب الشعير أدّى المزارع الأيوبي نصف اردب قمحا ، او ثلثي اردب فولا ، أو نصف اردب حمصا ، وهكذا . . .)
أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٠ - ٤٥١

(٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٥٨ - ٢٧٦ .

البساتين والكروم والأشجار ، ففى السنة الأولى من زراعتها كان يؤخذ على الفدان ربع دينار ، ثم تتدرج الضريبة حتى تصبح فى السنة الرابعة ثلاثة دنانير .(١) وكانت بساتين " الحبس الجيوشى " تخضع لتلك الضريبة الخراجية(٢) وهى بساتين وأراض زراعية حبسها أمير الجيوش بدر الجمالي على ذريته ثم آلت الى بيت المال الفاطمى ثم الى بيت المال الأيوبى ، وكانت أراضى تلك الجهة الخراجية تمسح كل عام ويجبى خراجها نقدا لا غلة ، وقد بلغ المستحق على الفدان منها ثلاثة دنانير وثلاثة أرباع الدينار .(٣)

وارتبط بالمال الخراجي أيضا ما عرف باسم " الحراج السلطاني " وهو يتعلق بالأراضي التى كانت مخصصة لزراعة أشجار السنط ، وكانت من الموارد الخراجية . وقد ذكر النابلسي أن السلطان صلاح الدين كان يعدّ غابات السنط كالمعادن ، أى ليس لأحد فيها

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٥٨ - ٢٧٦،
Rabie, Op. Cit. P. 77

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢٩

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١١٠ ، جـ ٢ ص ١٢٩، ١٩٤،
ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٦ - ٣٣٩ .
حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٤٤

اختصاص ، ولا تقطع ولا تملك .[1] وكان بعض أقاليم البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص ضمن الحراج السلطاني ، وكانت أخشاب تلك الغابات هي مصدر الأخشاب اللازمة لبناء السفن والقلاع .

وكان المقرر من الضرائب على تلك الجهات الخراجية بصفة خاصة - حسب ما ذكره المقريزى - نوعين ، هما : رسم الحراج ، ومقرر السنط .

وكان رسم الحراج يجبى من أهالى تلك النواحي نظير ما يأخذونه وينتفعون به من أخشاب السنط فى انشاء طواحينهم وسواقيهم واصلاحها وفي غير ذلك من الأمور . فى حين كان مقرر السنط بمثابة أجرة قطع الخشب وحمله من الغابة بدلا عنهم .[2]

وكانت ثمار السنط من " القرظ " مرتبطة بغابات السنط وضرائبها ، وكان الحائز لشىء منها من الأفراد معرضا لأنواع

---

(١) النابلسي : لمع القوانين المضية ، فى دواوين الديار المصرية ص ٤٨

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١٠ - ١١١ ، وابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٤٤ .

العقوبات والمصادرات .(١)

أما الرسوم الزراعية - ومنها رسم الأجران ، ورسم الخفارة ، ورسم خولى البحر - فكانت تعد من الموارد الاضافية فى الدولة ، وجرت العادة بمنحها للموظفين بالاقطاع مقابل خدماتهم .(٢)

ومن المعروف أن صلاح الدين خصص ديوان الجيش للانفاق على القوات الحربية البرية والحصون والقلاع والمدن العسكرية الجديدة ، وخصص ديوان الأسطول للنفقة على القوات البحرية وما تشمله من سفن وجند وبحارة وأسلحة ومؤن ، الى جانب " دور الصناعة " التى كانت تقوم بأعمال الصيانة الدورية اللازمة للأسطول المصرى .

وقد خصص صلاح الدين لديوان الأسطول متحصلات اقليم الفيوم ، و " الحبس الجيوشى " ، وخراج السنط ، وحصيلة النطرون التى بلغت قيمتها وقتذاك ثمانية آلاف دينار ، فضلا على متحصلات ديوان

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٧ ، المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١١ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٤٤

(٢) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر ص ٥٢

الزكاة وقد بلغت أكثر من خمسين ألف دينار ، وأجور المراكب الديوانية ، وأضيف الى تلك المتحصلات المخصصة لديوان الأسطول حصيلة الرسوم من قريتي " أشنين " و " طنبدى " التابعتين لعمل البهنسا .(١)

وفي سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م. أسند صلاح الدين أمر ديوان الأسطول الى أخيه العادل ، فعيّن العادل صفي الدين بن شكر نائبا عنه في ذلك الديوان .(٢)

وبالاضافة الى الخراج كانت هناك ضرائب أخرى متعددة تمدّ ايرادات الدولة . منها : الجوالي (الجزية) وهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة أي اليهود والنصارى القادرين على حمل السلاح ، وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م.

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٢٩

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ ، المواعظ : جـ٢ ص ١٢٩ ، ١٩٤ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٧١.

مائة وثلاثين ألف دينار .(١)

ومنها ، أموال المواريث الحشرية ، أى تركات من يموتون ولا وريث لهم .

ومنها متحصلات ديوان الأحباس الخاص والعامة ، أى الأوقاف ، وهى تشمل دورا وحوانيت وطواحين وأراضي وقفها المسلمون في أزمان سابقة .

ومنها الأموال الهلالية وهى الايجارات الشهرية المتحصلة من الجهات السكنية الخاصة بالسلاطين الأيوبيين ، ومن سبقهم من خلفاء الفاطميين .

ومنها متحصلات دار الضرب ، وهى الرسوم التى تحصلها الدولة الأيوبية من أصحاب الأموال الذين يرغبون فى سك ما لديهم من ذهب أو فضة فى صورة عملة رسمية .(٢)

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ١ ص ١١٧ ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٧٩ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٨٠ .

هذا كله بالاضافة الى المكوس ، وهى تشبه الرسوم الجمركية . وكان صلاح الدين قد ألغى المكوس الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م. وهو ما يزال نائبا عن نور الدين فى مصر ، وقد بلغ عدد تلك المكوس ثمانية وثمانين مكسا كانت حصيلتها فى السنة مائة ألف دينار . ثم أعاد صلاح الدين بعضها مثل : مكس تجار الكارم وهو الضريبة المفروضة على التوابل الواردة الى البلاد ، ومكس الخمس وهو الضريبة المفروضة على ما يجلبه التجار الأوربيون والمسيحيون من البضائع .(١)

وجرت العادة أن كاتب خراج الناحية المسئول عن بلد أو اقطاعية يقوم - بناء على ما هو مدوّن فى السجلات وما تحويه من توزيع أراضى الأحواض على المزارعين - بعمل نسخة منها تكون فى ديوان صاحب الاقطاع للمحاسبة بموجبها عندما ينضج المحصول ، وعندئذ يتولى مباشرو ديوان صاحب الاقطاع مسح أرض تلك البلدة فى كل قبالة بأسماء المزارعين ، ويسجلون ذلك فى سجلات تسمى " الغنداق"،

---

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ١٨٠.

ثم يتمّ تفريغ تلك البيانات فى أوراق أخرى وتختم بخاتم الديـــوان بما وصلت اليه المساحة (١). ثم يتمّ حصر المزارعين فى سجلات أخرى ، ويقارن بين سجلات المساحة وحيازات المزارعين ، وفى الغالب تزيد المساحة على حيازات المزارعين ، ثم يتمّ جمع كل تلك السجلات فـــى سجل آخر أشمل يُسمى " المكلّفة " ويشهد عليه الشهود ، وترسل نسخ منها الى ديوان المقطع ليتم على ضوئها جمع الخراج ومختلـــف أنواع الضرائب والرسوم (٢).

ثم تنظم سجلات أخرى تقدّم الى ولاة المناطق بالمساحات المقطعة ، وأسماء المقطعين وما يتحصل لهم حتى تستقيم الأمـــور ولا يكون ظلم أو اجحاف (٣).

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٥٠

(٢) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٩٧ .

وكانت الحجج تكتب على وكلاء أصحاب الاقطاعات المكلفين بتحصيل الأموال ولم يكن الوكيل يسلّم الى صاحب الاقطاع شيئا من الأموال الا بحجة مكتوبة تحفظ منها نسخة فى الديوان بما يثبت تسلّمه للمبلغ ، حتى اذا ما شكا أحد من المزارعين تم تحقيق أسباب شكواه ، وسئل عنها وكيل صاحب الاقطاع . وبلغت دقة مضمون الحجج وشموله الى حد أنه كان يشير الى متحصلات المقطعين فى البلاد والجهات مفصلة ، وجملة ما حصل لكل منهم من عين وغلة ، وما تأخر لكل منهم . (١)

وكان السلطان الأيوبى بوصفه المصدر الأساسي للاقطاعية يستطيع أن يلغيها فى أى وقت شاء ، وكان كل سلطان جديد يصدر تعليمات للموظفين ليسير المقطعون على أساسها . وقد ذكرت المصادر التاريخية مثالين يدعمان ذلك ؛ فبعد وفاة السلطان الصالح أيوب فى ذى القعدة ٦٤٧ هـ/ فبراير ١٢٥٠م. أصدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ - وكان معروفا بطموحه الى تولّى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٩٧ .

السلطنة ـ تعليمات الى المقطعين باسمه ، وعدما تولّت شجرة الدر الحكم فى سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م. أصدرت تعليمات جديدة بتوقيعها كما ذكره النويرى (١) .

وهاتان الحادثتان تبرهنان على أن توقيع منشورات الاقطاع كان من أهم خصائص سلطة السلطان . وينبغى أن يذكر أن تعيين الاقطاع من قبل السلطان لم يكن يعنى ملكية الأراضى الزراعية ، ولا التمتع الدائم بعائدات الاقطاعية .

ومن قبل كان عماد الدين زنكي ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، وكان يقول لهم : " اذا كانت البلاد لنا فأى حاجة بكم الى الأملاك ، فان الاقطاعات تغنى عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها " (٢) .

كان هذا رأى زنكي وفلسفته فى حيازة الأمراء للأملاك .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٧ ورقة ١٢٢ .

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 57

وقد سار نور الدين على سياسة أبيه نفسها ، وكذلك كان رأى صلاح الدين ، فلم يكن يحبذ أن يمتلك أمراؤه الأراضي الا على سبيل الاقطاع يقومون باستغلالها الى نهاية حياتهم أو تسترد منهم لخلعهم . ثم لا تكون ميراثا بل تعود ملكا للدولة يتصرف السلطان في أمرها أو يردها الى بيت المال .(١)

مثال ذلك ما حدث عندما توفي الأمير بهاء الدين قراقوش في سنة ٥٩٧ هـ . فقد احتاط العادل على تركته وتسلم داره بما حوته من الذخائر ، وصارت اقطاعاته للملك الكامل محمد بن العادل .(٢)

ومعلوم أن نظام الاقطاع الزنكي كان وراثيا ، أى أن الاقطاع كان يئول الى الابن بعد وفاة الأب ، واذا كان الأبناء قاصرين عيّن من يشرف على الاقطاع حتى بلوغهم سن الرشد . وقد قيل ان هذا النظام كان من الأسباب القوية التي دفعت الأمراء والجند الأنابكيين

---

(١) سيد أدهل : أيام صلاح الدين ص ٤٠ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٢٤٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١ .

الى القتال بشجاعة وبسالة ، فتحققت الانتصارات الاسلامية وعلى رأسها استخلاص مدينة الرها من أيدى الصليبيين .

ومن ذلك أيضا أنه عندما توفى حسان صاحب منبج فى سنة ٥٦٢ هـ أقطع نور الدين تلك المدينة لولده غازى بن حسان ، فلما خرج غازى عن طاعة نور الدين أرسل اليه جندا وأخرج منبج عن يده وأقطعها لأخيه قطب الدين ينال بن حسان .(١)

وعندما توفى مجد الدين أبو بكر بن الداية - وكانت له منزلة كبيرة لدى السلطان نور الدين محمود ، وكان اقطاعه يشمل : حلب، وحارم ، وقلعة جعبر - أقطعها نور الدين لأخيه شمس الدين على بن الداية .(٢)

وهكذا كان عماد الدين ومن بعده ابنه نور الدين اذا توفى أمير من أمرائها " وخلّف ولدا ذكرا أقرّ الاقطاع عليه ، فان كان الولد

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب جـ ٢ ص ٣٢٤-٣٢٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٩٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٥٣ .

(٢) أبو الفداء : المختصر جـ ٣ ص ٤٩ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٥٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٢٠ .

كبيرا استبدّ بنفسه ، وان كان صغيرا رتب السلطان معه رجلا عاقلا يثق اليه فيتولى أمره الى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها " وكان ذلك من أعظم الأسباب لاستبسال الجند فى المشاهد والحروب بين يدى السلطان .(١)

ولم يكن النظام الذى اتبعه السلطان صلاح الدين الأيوبى فى مصر مطابقا تمام المطابقة لنظام الزنكيين ، وان كان الاقطاع يمنح فى مقابل الخدمة العسكرية ، فقد ألغى نظام الوراثة ، فلم تورث الاقطاعات الا فى حالات نادرة ومعدودة ولأسباب خاصة ، كما أن المقطع لم يكن يتمتع بالاستقلال الذاتى والسيادة على أرض الاقطاع كما كان الحال فى الدولة الزنكية .(٢)

وأما عن كيفية التصرف فى الاقطاعية بعد وفاة المقطع فى النظام الأيوبى فقد اختلفت الآراء ، فقيل ان الاقطاعية كانت تورث

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٨٠

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P.30

وعبد الله الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١٠١ ، سيد أهل : أيام صلاح الدين ص ٩٨ - ٩٩ .

بشرط دوام الاخلاص واستمرار الولاء للسلطان . وقيل انه نتيجة للتأثر بنظام الاقطاع اللاتيني ، فان الاقطاع لم يتحول وراثيا الا في بداية العهد المملوكي ، وان قلّد الأيوبيون نظام الاقطاع الوراثي ، فوجد بعض الشبه في بعض الأحيان بين نظام الاقطاع في زمن السلطان صلاح الدين ونظام الاقطاع في زمن نور الدين من حيث أنه كان وراثيا . وقيل ان الاقطاع في العصر الأيوبي كان يمنح لمدى الحياة أو لفترة محدودة ، وانه كان عرضة للنقص والزيادة بحسب رغبة السلطان أو بناء على طلب المقطع .

وعندما كان الاقطاع يمنح لعدد من السنوات ويتوفى المقطع قبل تمامها فان الاقطاع لم يكن ليئول الى الورثة وانما يردّ الى بيت المال .(١)

ومما هو جدير بالذكر أن كثرة التغيرات في الاقطاع تدل على أن الاقطاع لم يكن بالضرورة لمدى الحياة وبذلك لم يكن وراثيا .

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 58

ومقارنة الآراء السابقة بالمعلومات الواردة في المصادر الأساسية تؤدى الى رفض فكرة توريث الاقطاع لسببين : -

أولهما : ان طبيعة الاقطاع وجهود السلطان لزيادة كفاءة هذا النظام الاقطاعى الحربى لم تكن تسمح بمبدأ الوراثة ، وكان السلاطين على يقين من أن الاقطاع الوراثى له تأثير سلبى فى الخدمة العسكرية اذا كان للمقطع ابن صغير أو عدد من الأبناء الصغار ، فهؤلاء لم يكونوا ليستطيعوا حمل السلاح وبذلك لا يشتركون فى الحملات العسكرية . كما أن توزيع الاقطاع بين عدد من الأبناء لم يكن فى مصلحة الاقطاعية .

ثانيهما : لم تتضمن السجلات الرسمية اشارة الى توريث الاقطاع الا فى أربع حالات فى خلال العصر الأيوبى (١) :

الأولى : عندما توفى ناصر الدين محمد بن شيركوه سنة ٥٨١ هـ . / ١١٨٥ م . بحمص وهى اقطاعه ، منحها السلطان صلاح الدين

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 58

الأيوبى لولده الصبى شيركوه .(١)

الثانية : فى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. منح السلطان صلاح الدين اقطاع شمس الدين ابن المقدم أمير الحاج الشامى لابنه عز الدين بعد أن ولاه امرة الحاج الشامى خلفا لأبيه .(٢)

الثالثة : وعندما توفى زين الدين يوسف صاحب اربل سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م. أقطع السلطان اربل لأخيه مظفر الدين كوكبرى وأضاف اليه شهر زور وأعمالها ، وهنا أقطع الأخ لا الابن اقطاع المتوفى .

---

(١) الحنبلى : شفاء القلوب ص ٤٨ - ٤٩ ، شاكر محمود : العسجد المسبوك جـ ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، وابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٠ - ١١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٧٣ ، وابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٢

(٣) الحنبلى : شفاء القلوب ص ١٦٩ .

الرابعة : فى عام ٥٨٨هـ./ ١١٩٢م. عندما توفى الأمير سيف الدين

على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب بنابلس " وقف

السلطان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس ،

وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذى التزمه

التزام الدين " . (١)

ويبدو أن بأس هذا الأمير وبسالته ، واقدامه فى حروب

أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين ، وملازمته للسلطان فى

الشدائد ، ومكانته فى السلطنة كان لها دور فى تزكية ابنه

لوراثة هذا الجزء من اقطاع أبيه .

وعلى كل حال لم تكن الحالات الأربع المذكورة دليلا واقعيا

على تطبيق الاقطاع الوراثى ، فان حالات الغاء الاقطاعات ، وعدم

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٠٩ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ١٧٩ ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ٨٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ١٥٩ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ج٢ ص ٩٢ - ٩٣ .

توريث أبناء المقطع بعد وفاته كانت هى السائدة فى خلال حكم الأيوبيين . ذلك أن التزام المقطع بواجباته بوجه عام وواجباته العسكرية بوجه خاص، وتمتعه بالصحة الجيدة كانا أساس استمرار الاقطاع ، لأن الاقطاع انما كان يمنح فى الأصل من أجل الخدمة العسكرية الكاملة .(١) ولذلك كان السلطان يلغى اقطاع من يقصر فى القيام بواجباته العسكرية ، وهذا مبدأ من النظام الزنكي اتبعه الأيوبيون .

وهناك من الشواهد ما يؤكد ذلك ، ففى جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/ نوفمبر ١١٧٧م. ألغى صلاح الدين اقطاعات مجموعة من الأمراء الأكراد لأنهم كانوا سبب هزيمة جيشه فى الرملة . وفى خلال الحرب بين صلاح الدين وقوات الحملة الصليبية الثالثة ألغى صلاح الدين اقطاعات من فرّ من الأمراء وأعاد توزيعها على غيرهم .(٢) كما ألغى السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين اقطاعات الأمراء الذين فضلوا الاستقرار فى الشام ورفضوا

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 60

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤ - ٦٥ ، حسنين ربيع : النظم ص ٣٥ .

الخدمة العسكرية فى سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م.[١]

وهكذا ترسّم خلفاء صلاح الدين خطاه فى هذا المجال ،

وعلى سبيل المثال نذكر أن " تل باشر " كانت اقطاعا للأمير بدر الدين دلدرم بن ياروق منذ عهد صلاح الدين ، ثم صارت بعده اقطاعا لولده فى سنة ٦٢٩ هـ .[٢]

وكانت شيزر اقطاعا للأمير سابق الدين عثمان بن الداية منذ عهد نور الدين فلما آلت الأمور الى صلاح الدين أقرّه عليها ، وزاده فوقها حصن بوقبيس ، واستمرّ الأمير سابق الدين عثمان بن الداية على اقطاعه الى أن توفى ، فصار من بعده لولده عز الدين مسعود ، واستمرّ فى يده وظلّ تابعا للملك الظاهر صاحب حلب ، فلما توفى عز الدين صار الاقطاع المذكور فى سنة ٦٣٠ هـ الى ولده شهاب الدين يوسف وكان كذلك تابعا لصاحب حلب .[٣]

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 60

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٩

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٥ ص ٦٣- ٦٤ ، أبو الفداء : المختصر جـ ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ولما أنشأ الصالح نجم الدين أيوب فرقة المماليك التى عرفت باسم " المماليك البحرية " كان اذا مات واحد من مماليكه وكان له ولد أنعم باقطاع والده عليه ، فان لم يكن له ولد أنعم به على خشداشيته . وعلى هذه السياسة نفسها سار المماليك بعد ذلك . (١)

أما عن استرداد السلطان للاقطاع من صاحبه ، فقد كان ذلك يحدث فى حالة وفاة المقطع ، أو مرضه الشديد ، أو فى حالة خيانة المقطع للسلطان ، أو عدم وفائه بالتزاماته . وقد تكرر من السلطان نور الدين محمود أن ألغى الاقطاع بسبب اهمال الأمير واجبه العسكرى ، وقد حدث فى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ، أن تردد غالبية الأمراء الزنكيين فى القتال ضد الفاطميين والصليبيين فى موقعة " البابين " فى مصر العليا ، فهددهم الأمير شرف الدين برغش بأنهم اذا قصروا فى القتال فسوف يحرمهم السلطان من الاقطاعات ويغرمهم كل ما عاد عليهم منها ، ولهذا السبب قاتلوا بشجاعة وانتصروا . (٢)

---

(١) ابن أيبك : الدر المطلوب جـ ٧ ص ٣٧٠ - ٣٧١

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 29

وفي السنة نفسها خرج الأمير غازى بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين فأرسل اليه نور الدين عسكرا حصره بها واستردّها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال به حسّان ، وكان خيّرا حسن السيرة، فظلّ بها الى أن فتحها السلطان صلاح الدين الأيوبى [١] .

واتبع صلاح الدين سياسة نور الدين نفسها ازاء المقطعين . وقد كان السلطان بوصفه المصدر الأصلى لمنح الاقطاع يستطيع أن يلغيه فى أى وقت ، اذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه ، أو بدر منه ما يخلّ بالتزاماته الحربية ، ومن ذلك ما حدث فى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م. اذ أبطل السلطان صلاح الدين الأيوبى اقطاعات جماعة من الأكراد تسببوا فى هزيمته فى وقعة الرملة عند تل الصافية أمام الجيش الصليبى بقيادة أرناط [٢] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٤ - ٦٥ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٥٦ ، عبدالله الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وفى حالة خيانة المقطع للسلطان كان السلطان يستردّ منه اقطاعه ، ففى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م. وفى أثناء حصار الفرنج لمدينة عكا هرب جماعة من الأمراء " ممن كانوا فى البلد فأخذوا لهم بركوسا (١) ، وركبوا فيه ليلا خارجين الى المعسكر الاسلامى ، منهم عز الدين أرسل ، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي ، وسنقر الوشاحي الأسدى ، وهو من أكابر الأمراء الأسدية ، فأبطل السلطان اقطاعاتهم وأقطعها لآخرين وتغيّر عليهم ". (٢)

---

(١) بركوس وجمعه براكيس : نوع من السفن كان يستعمل فى الحروب بين الشرق والغرب فى مياه البحر المتوسط فى العصور الوسطى وهو أصغر حجما من السفينه (ابن الفرات : م ٤ جـ ٢ ص ١٦ - ١٨ الحاشية رقم ٥٧) .

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات م٤ جـ ٢ ص ١٦ - ١٨ ، أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص ١٨٦ - ١٨٧ ، والعماد الأصفهانى : الفتح القسّي ص ٢٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ .

وسار خلفاء صلاح الدين على سيرته فى مختلف أنحاء الدولة الأيوبية ، ففى سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م. خرج شمس الدين بن المقدم على الملك الظاهر صاحب حلب، وهرب الى قلعة الرواند وتحصّن بها ، فحصره الملك الظاهر واستنزله منها وأخذ كل ماله من الأموال والذخائر، وطلب شمس الدين شغاعة بدر الدين دلدرم صاحب " تل باشر " عند الملك الظاهر ليعيدوا اليه ما استولى عليه منه فلم يجبه الى ذلك ، فقصد الملك العادل فأقطعه اقطاعا وأحسن اليه .(١)

. . . .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣.

الفصل الرابع

التنظيمات الإقطاعية

اعتمد الأيوبيون على الاقطاع الحربى بديلا للرواتب والتجهيزات وبدأ التوزيع الاقطاعى الأيوبى منذ صار شيركوه وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى . ومضى صلاح الدين فى تنفيذ تلك السياسة بعد ذلك ، وتوسع تدريجيا فى تطبيق النظام الجديد بعد القضاء على الدولة الفاطمية . فلما استقل بمصر صار له الأمر والنهى فى اقطاع الاقطاعات . (١)

ولا شك أن ادارة ذلك النظام كانت تستلزم ايجاد التنظيمات التى يمكن السير عليها بما يؤدى الى حسن الادارة وضمان تحقيق ما استهدف من الأخذ بالاقطاع الحربى .

وفيما يتعلق بالتوزيع الاقطاعى الأيوبى ذكر المقريزى أن جميع الأراضى المصرية قد وزّعت فى صورة اقطاعات للسلطان وأمرائه وأجناده منذ

---

(١) ابن خلدون : تاريخه جـ٤ ص٧٩ ، أبو شامة : الروضتين جـ١ ص٢١٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص٢٥٧-٢٥٨ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص٥٢ .

عهد صلاح الدين (١) .

ولا يعنى هذا أن أراضى مصر كلها كانت تقطع : فهناك أراضى الأوقاف والملك الحر وهى أراض غير اقطاعية ، ولكن يبدو أنها لم تكن تمثل نسبة ذات أثر حتى ان المقريزى عمّم فى كلامه عن الاقطاع فشمل الأراضى المصرية كلها (٢) .

ولسنا نجد عند المقريزى ولا غيره توضيحا للأسس التى كان يتم توزيع الاقطاعات على المقطعين بموجبها ، وقد يعود ذلك الى قلة المعلومات المتعلقة بالروك الصلاحي الذى قام به السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م. وربما كانت تلك المعلومات مما كان يعدّ من أسرار ديوان الجيش التى لا يجوز الكشف عنها ، وما أتيح التعرف عليه من المعلومات انما يرجع الى عصر سلطنة السلطان المملوكى لاجين الذى تولى السلطنة عام ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦م. فقد وجد أن أراضى مصر الزراعية

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٧ ، نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ٢٨

(٢) ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية ص ٣٣ - ٣٤

تمثل أربعة وعشرين قيراطا يخصّ السلطان منها أربعة قراريط ، يهب منها لمن يشاء من خواصه وقواده وعسكره ، وفى أيدى الأمراء عشرة قراريط ، وفى أيدى الأجناد مثلها .(١)

وكان توزيع الأراضي يعاد بين حين وحين بعد مسحها مرة كل ثلاثين عاما على الأقل ، وكثيرا ما كان التوزيع يعاد من جديد اذا نشب خلاف ، وذلك عندما يستولى كبار الأمراء مثلا على اقطاعات واسعة ، أو عندما يمتنع صغار الأمراء عن اقطاع الجند .

وكان السلاطين يأمرون بمسح الأرض من جديد كى يقطعوا ماليكهم ، مثلما حدث فى دولة المماليك البحرية فى عهد السلطان لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/ ١٢٩٦- ١٢٩٩م) اذ أخذ لنفسه أربعة عشر قيراطا من الاقطاعات المخصصة لأمرائه .

ويذكر القلقشندى أن السلطان اعتاد أن يميز بين ثلاثة أنواع من الأراضى الزراعية الممنوحة فى صورة اقطاع وفقا لمتحصلاتها ، فكانت الأراضى

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٩٢

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة اقطاع .

ذات العائد المرتفع تمنح للأمراء وفقا لرتبهم ، وكان كل أمير يتسلم ما بين قرية وعشر قرى .

وأما النوع الثانى يمنح للماليك السلطانية ، وفى حالات نادرة كان نصيب الواحد يصل الى قرية بأكملها ، وفى أكثر الحالات كانت القرية الواحدة تقسم بين اثنين أو أكثر من المقطعين .

وأما النوع الأخير من الاقطاعات ذات المتحصلات القليلة فكان من نصيب أجناد الحلقة ، ثم هناك القبائل البدوية ، وكانت كل مجموعة منها تتقاسم قرية واحدة .(١)

ولم نعثر على نصوص أخرى تؤكد أو تنقض ما أورده القلقشندى ، ويبدو أن ما أوردناه من معلومات - وان كان عن العصر المملوكى - يمثل من غير شك امتدادا لما كان متبعا عند الأيوبيين .(٢)

أما فيما يتعلق بنصيب الأجناد من اقطاع الأمير فى زمن الأيوبيين فيبدو أن المتبع قبل استقلال صلاح الدين بحكم مصر كان أن يقدّم الأمير

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٧ - ٤٥٨

(٢) Rabie, op. Cit, PP. 45-46.

المقطع جزءا من اقطاعه للأجناد ، فالمصادر المعاصرة لتلك الفترة تذكر أنه لما فتح توران شاه النوبة سنة ٥٦٨هـ./ ١١٧٢م. وعاد الى قوص مركز اقطاعه أقطع أحد أمرائه وهو ابراهيم الكردى قلعة ابريم ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين لمعاونته .(١)

وهكذا ساعد هذا الاقطاع على توفير الامكانات واستقرار الجند البطالين .

وقد أشار النابلسي فى تاريخه الى أن قرية ببيج انقاش قد منحت اقطاعا للأمير عماد الدين بن طيء ، وأجناد الأمراء : شهاب الدين خضر ، وحسام الدين بن أبى على ، وركن الدين خاص الترك ، وعلم الدين وفارس الدين اقطاى ، وسيف الدين الحميدى ، وجمال الدين أقوش .(٢)

وذكر كذلك أن بلدة منية البطس قد منحت اقطاعا للأمير ركن الدين خاص الترك ، والأمير افتخار الدين ياقوت اليمانى ، وقال ان جزءا منها

---

(١) أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ٥٣٠ - ٥٣٢ ، المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٥٠ - ٥١

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ٧٦ .

قد منح لأجناد ثلاثة أمراء آخرين ولمجموعة من أجناد الحلقة المنصورة.(١)
ومنحت بمويه وقمبشا اقطاعا لأجناد أميرين .(٢)

وبالاضافة الى ذلك جاء في وصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه أن معظم الأجناد قد تحولوا الى باعة جائلين وصاروا من العامة ، وان كل واحد منهم قد جاء الى الأمير يرتدى قباء ويمتطى جوادا .

ومن ذلك كله يمكن الاستدلال على أن الأمير الأيوبي كان يمنح بعض الأجناد مساحات محدودة من الأراضى الزراعية التى تشكل اقطاعه .

ويشير المقريزى الى أن نصيب الأجناد من اقطاع الأمير كان يحدّد فى منشور الأمير على أساس أن ثلث الاقطاع للأمير والثلثين للأجناد ، ولم يكن يحق للأمير أو موظفيه زيادة حصة الأمير على حساب الأجناد

---

(١) النابلسي : تاريخ الفيوم ص ١٦٣ - ١٦٤
(٢) المصدر السابق ص ١٤١ ،
Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 37

دون موافقتهم (١).

ومما هو جدير بالذكر أن ما ذكره المقريزى لم يوضح هل كانت حصة الأجناد من الأراضى أو من ريعها ، ولكن يمكن القول بأنه قد جرت العادة فى العصر الأيوبى أن يترك الأمير جزءا من الاقطاعية لأجناده ليتمتعوا بريعه (٢).

ومن ناحية أخرى كان يتحتم على كل أمير أن يبلغ ديوان الجيش بحجم الاقطاعية التى منحها لأجناده ، مع بيان عددهم وأسمائهم وحصة كل منهم فى اقطاع الأمير (٣).

ولما كان نظام الاقطاع فى مصر فى العصر الأيوبى اقطاعا حربيا فقد كان ديوان الجيش هو الديوان المختص بالاشراف على تسجيل الاقطاعات وتقديرها وتوزيعها (٤).

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦ ،وأنظر : نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ٣٠

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 37

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٦ - ٢٠٧

(٤) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 37

بعثرة الاقطاع لضمان استمرار ولاء المقطعين :

حرص الأيوبيون على تفتيت الاقطاعات وألا يتجمع اقطاع واحد في منطقة واحدة أو في مناطق متجاورة ، بل عمدوا الى توزيع الاقطاعات في عدد من المناطق المتباعدة ضمانا لاستمرار ولاء المقطعين ، وحتى لا تكون لدى أحدهم الفرصة للتفكير في محاولة الاستقلال أو العصيان . ولم يكن هذا المبدأ قاصرا على المقطعين من غير البيت الأيوبي ، بل شمل اخوة صلاح الدين لئلا يكون الاقطاع أداة لازدياد نفوذ المقطع على حساب السلطة المركزية . ومثال ذلك أن توقيع الاقطاع الخاص بالعادل أخي صلاح الدين في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م. قد تضمن ذكر الجهات التي حدد فيها اقطاعه من الديار المصرية والشامية وبلاد الجزيرة وديار بكر (١) ، وكذلك أقطع صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اقطاعا متفرقا اذ أقطعه منبج وحماة وسلمية وغيرها (٢) ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٤٦- ١٤٧ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٧٦.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٣.

بالاضافة الى ما كان تحت يده في مصر في كل من الفيوم ، والبحيرة ، وفاى ، وقايات ، وبوش ، وفوة والمزاحمتين ، وحوف رمسيس ، والاسكندرية ، ثم أضيف اليه سمنود والواحات عوضا عن بوش [(١)] .

وكذلك كان اقطاع توران شاه موزعا في عدة مدن وقرى في مصر العليا ومصر السفلى ، ففى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . منح صلاح الدين لتوران شاه مدينة قوص وأسوان وعيذاب [(٢)] ، ثم أعطاه في العام الذى بعده بوش والجيزة وسمنود وأقاليم أخرى ، ثم منحه الاسكندرية في سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م [(٣)] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٥٢ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩١ الحاشية ٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ق٢ ص ٤٦٦ ، المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٧ ، ٤١٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٨ ، المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٨ .

وذكر ابن واصل أنه بات ليلة بقليوب وهو فى طريقه الى دمياط فى أواخر المحرم سنة ٦٤٨هـ./ مايو ١٢٥٠م. ليشاهد عودة المسلمين اليها بعد انتصارهم على لويس التاسع ، ثم غادر قليوب الى مرصفا - التى تتبع الآن مركز بنها - وقال انها كانت " ضيعة من الضياع الجارية فى خبر (اقطاع) حسام الدين محمد بن أبى على الهذباني ". (١)

وقد اتبع سلاطين الأيوبيين بطبيعة الحال طريقة بعثرة الاقطاع مع غير أمراء البيت الأيوبى ، مثال ذلك أن اقطاع الأمير شمس الدين العادلى كان مبعثرا بين الشام ومصر . (٢)

على أن بعثرة الاقطاع كان لها أثر سيئ فى كثير من الأحيان . وقد حاول الأيوبيون العدول عن هذه السياسة وانتهاج سياسة وحدة الاقطاع وعدم تفتيته ، ويتضح ذلك من الوصية التى تركها السلطان الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه فبعد أن اتهم القبط بالعمل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ورقة ٣٧٢ أ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٦

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

على اضعاف الجيش وتخريب البلاد ذكر أن الموظفين الأقباط تعمدوا العمل على بعثرة الاقطاعات وتفتيتها وهذا يؤدى الى انخفاض عائدها أو ضياعه لكثرة ما ينفق عليها ، الى درجة أن الاقطاع الذى كان يغلّ ألف دينار جيشى فى السنة ويخص جنديا واحدا كان موزعا فى خمس مناطق أو ست مناطق متباعدة ، فمنه جزء فى قوص بمصر العليا وجزء فى اقليم الشرقية أو اقليم الغربية بمصر السفلى ، وفى هذه الحالة كان المقطع يستخدم أربعة وكلاء أو أكثر فلا يبقى له شىء من المحصول وخاصة اذا كان غائبا فى ميدان القتال .

ولذلك كانت وصية الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه أن تكون الاقطاعات فى جهة واحدة بقدر الامكان أو جهتين متقاربتين .(١)

لكن لم تطل فترة حكم توران شاه حتى يتمكن من انفاذ ما أوصاه به أبوه ، اذ عزله المماليك بعد واحد وسبعين يوما من ولايته .

ومما تجدر الاشارة اليه استمرار تفتيت الاقطاعات وبعثرتها فى مناطق متعددة ومتباعدة فيما بين مصر والشام وغيرهما فى عصر المماليك .(٢)

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ الورقة ٩١ - ٩٢

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٤ ،
Rabie, Op. Cit., PP. 46-47.

ولا شك فى أن بقاء العمل بهذه الطريقة انما يرجع الى أن توزيع الاقطاعات كان يتمّ بحسب خلوّها أى بطريقة عشوائية (١).

توقيعات الاقطاع :

كان المتبع أن تصدر التوقيعات أو الوثائق الاقطاعية عند تولى سلطان جديد ، أو بعد روك البلاد ، أو بعد وفاة مقطع أو تنازله عن رضا ، أو غير ذلك .

ففى حالة الروك كان ديوان الجيش يقوم بفحص البيانات الخاصة بأوراق الروك (٢) ، وبناء على أوامر السلطان تتم كتابة الوثائق ، وهى على مراحل ، فأول ما يصدره ديوان الجيش هو " المثال " وفيه ينص على حجم الاقطاع واسم صاحبه مع ذكر عبرته .

وبناء على هذا " المثال " تستخرج وثيقة أخرى هى " المربعة " (٣). وتحوى مزيدا من التفصيلات عن تحديد مرتبة الأمير ، وعدد جنده ،

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 47

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٢١ - ٣٢٣

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٣ - ١٥٤.

والجهة أو الجهات التى يقع فيها الاقطاع ، وغير ذلك من بيانات .(١)

ثم ترسل " المربعة " الى ديوان الانشاء لكتابة المنشور على أساسها ، ويتميز المنشور بأنه أكثر تفصيلا .(٢)

أما التسجيل النهائى لبراءات الاقطاع فكان يتم فى ديوان الجيش ، حيث يتمّ الافراج عن ملك الاقطاع ويتم تسليمه لأربابه بناء على محضر تسليم .(٣)

وأما فيما يتعلق باصدار السلطان الجديد لتوقيعات الاقطاعات عند توليه السلطنة فلم يكن أمرا مستحدثا عند الأيوبيين ، وانما جرى به العرف من قبل ، فقد كان معمولا به عند الخلفاء العباسيين وفى الدولة

---

(١) العمرى : التعريف ص ٨٤ - ٨٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٥٢ - ٥٤ ، جـ ٦ ص ١٩٠ وما بعدها ، جـ ١٣ ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٠٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، جـ١٣ ص ١٥٤-١٥٦ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٨ ، ٢١١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦٩ - ٧٧٠ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٣٩ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٢ .

الزنكيـة ، واستمرّ عليه صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين من بعده .

وبالرغم من أننا لم نحصل على نصوص تفصيلية بهذا الشأن فانه يمكـن الاستدلال عليه مما قام به العادل أخو صلاح الدين بعد أن انفرد بالأمر فى حكم مصر والشام على غرار ما فعله صلاح الدين من قبل اذ أقطع أبناءه دون غيرهم.(١)

وبعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب قام الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بتوزيع الاقطاعات بمناشير(٢) (توقيعات) صادرة عنه فى سنة ٦٤٧هـ./ ١٢٤٩م. ، وهذا يدل على أنه كـان يتطلع الى الوصول الى عرش السلطنة .(٣)

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجـوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٣) النـويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ الورقة ٨٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٤٣ ، ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥٩ .

ومن الملاحظ اختلاف أساليب توقيعات الاقطاع ـ وخاصة فى افتتاحياتها ـ فيما يتعلق بمكانة المقطع فى الدولة وعند السلطان ، وصفة الاقطاع نفسه ، فالأسلوب الأول لتلك التوقيعات خاص بكبار أمراء البيت الأيوبى ، ويفتتح التوقيع فيه بعبارة " الحمد لله " ، ومن ذلك التوقيع الذى أصدره صلاح الدين فى سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م. باقطاع أخيه العادل اقطاعات بالديار المصرية وبلاد الشام والجزيرة وديار بكر.(١)

وقد افتتح التوقيع بعبارة " الحمد لله " . وفى المقدمة كان الاهتمام بذكر صلة الأرحام ، وقرابة الأمير للبيت السلطانى ، ثم بيان الدوافع والمبررات لمنح الاقطاع من ذكر درجة قرابته من السلطان ، ومواقفه فى الجهاد ضد الكفار والطامعين ، وخدماته التى قدمها ، ويعدّد الكاتب فى هذا الصدد صفات الأمير المقطع وشهامته وشجاعته . ثم يشمل التوقيع وصف الاقطاع . ووصية المقطع بالعدل فى الرعية " الذين هم عنده ودائع" ووصية له بأن يبلغ الأمراء والأجناد التابعين له الوصية نفسها ، وأن يتحلّى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٤٤ - ١٤٨ . وأنظر نص التوقيع فى ملاحق الرسالة .

بالتقوى والرحمة ، وأن ينهى مرءوسيه ويخوّفهم من أخذ الرشوة من الناس، والاهتمام بالقضاء ، والنصح والكياسة فى ادارة الاقطاع وعمارته وحفظ الأمن فيه ، وحسن الجوار مع غيره من المقطعين المجاورين له .(١)

أما الأسلوب الثانى لتوقيعات الاقطاع عند الأيوبيين فهو أقل رتبة ، ويفتتح بعبارة " أما بعد " ثم يأتى ذكر مكانة الأمير المقطع وصفاته وخدماته للسلطان ، ويبين أنه نال الاقطاع نظير دخوله فى الخدمة السلطانية (٢) ويرد وعد له بزيادة الاقطاع الممنوح له اذا قدّم المزيد من الخدمات ، ووصية له بأن يكون مستعدا للخدمة الحربية وأن يتخذ أعوانا من الرجال الأشداء الشجعان ليساعدوه فى أداء واجباته .(٣)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٤٤ - ١٤٨ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) القلقشندى : المصدر السابق جـ ١٣ ص ١٤٨ - ١٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٢ - ٥٣ ، ٥٧ ، ٧٤ ، (انظر نص التوقيع فى ملاحق الرسالة) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٤٨ - ١٥٠ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٨ .

وأما الأسلوب الثالث لتلك التوقيعات فكان يفتتح بالحث على الشجاعة والاقدام على الجهاد ، ويركز التوقيع على توضيح أن الاقطاع انما يمنح للعناصر الممتازة المختارة فى الجيش ، وقد منح الأمير هذا الاقطاع مقابل ما قدمه من خدمات عسكرية ، وفى التوقيع وصية للمقطع بأن يكون دائما " فى التأهب للخدمة كالسهم الموضوع فى وتره " وأن يكثر من الفرسان وبزيادة العطاء لهم حتى يعينهم على اعداد القوة .(١)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٠ - ١٥٢ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ٣٨

تقييم الاقطاعات الأيوبيــــة :

كان الاقطاع الأيوبي موردا من موارد الدولة ، فقد جرت العادة في جميع الاقطاعات الأيوبية بأنواعها أن يمنح الاقطاع مقدّرا بعبرته ، والعبرة هي معدّل ما يغلّه الاقطاع . وقد استخدم اصطلاح " العبرة " لتحديد القيمة المالية لما ينتج من الناحية أو القطر ، الا أنه لم يكن من السهل دائما معرفة كيفية اقرارها ، ولا مدى ارتباطها بالضرائـــب المفروضة فعلا .

ويذكر الخوارزمي أن تقدير العبرة كان يعتمد على معدّل الدخل الذي يتحقق ، وكان هذا المعدّل يتمّ بحساب متحصلات السنوات التي يجود فيها المحصول مع متحصلات السنوات التي يسوء فيها المحصول ، فتجمع ويؤخذ المتوسط مع مراعاة تقلّب الأسعار ، والأحداث الطارئـــة كالحروب والأوبئة .(١)

---

(١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٦٠ وما بعدها ،
Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 47

وهكذا فان عبرة الاقطاع من الناحية النظرية كانت تعنى معدّل الدخل السنوى فى الاقطاع ، أما من الناحية العملية فان العبرة لم تكن تطابق هذا المعدّل السنوى للدخل ، ~~وهذا يدل على أن "العبرة" لم تكن ذات فائدة~~ ، لأن الدخل الفعلى للاقطاع الذى تقدر عبرته بمائة دينار مثلا قد يكون أكبر من الدخل الفعلى لاقطاع آخر قدرت عبرته بمائتى دينار أو أكثر .(١)

ولم يكن الدينار المتداول هو الوحدة النقدية المستخدمة فى ذلك ، بل كانت العبرة تحسب على أساس "الدينار الجيشي"(٢) وهو دينار اعتبارى أو اسمى ، وليس حقيقيا . وكان استخدامه جاريا فى ديوان الجيش لتقدير عبرة كل اقطاع ،(٣) فتقدر بما يقابلها من الدنانير الجيشية وتزيد وتقل بحسب مرتبة صاحب الاقطاع ، وأهمية وظيفته فى الدولة الأيوبية ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ .

(٢) السيد الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الأوسط ص ١٤٤ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ .

ومكانــة طبقته فى المجتمع .(١)

وقد عرّف ابن مماتي الدينار الجيشي بأنه دينار فرضــى ، اختلف فى قيمته الحقيقية باختلاف طبقات المجتمع الأيوبى ، فكـــان بالنسبة الى الأكراد والتركمان والأتراك فى عهد صلاح الدين يســاوى دينارا ذهبيا كاملا ، وبالنسبة الى العرب الكنائية والعسقلانية (من عسقلان) والأجناد الأخرى المماثلة كان يساوى نصف دينار ذهبى ، وبالنسبة الى قادة البحرية والرتب المماثلة كانت قيمته ربع دينار ذهبى ، وبالنسبة الى قبائل العرب المتميزة بميزات معينة كان يساوى ثُمن دينــار ذهـــبى .(٢)

وذكر ابن مماتى كذلك أن الدينار الجيشي كان يشتمل علــى ربع قيمة الدينار الذهبى الشرعى وارد بمن الغلّة ثلثه من الشعير وثلثاه من القمح ، وطبقا لذلك اذا كانت عبرة الاقطاع مائة دينار جيشـــي

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ .

فهى تتكون من خمسة وعشرين دينارا ذهبيا ، ومائة اردب من الغلة ثلثها من الشعير وثلثاها من القمح[١] .

وذكر القلقشندى والسيوطى وابن الجيعان أن قيمة الدينار الجيشي كانت ثلاثة عشر درهما وثلث درهم بالعملة المتداولة[٢] .

ويذكر أحد الباحثين أنه اذا كان اردب القمح يساوى نصف دينار ذهبي فى عهد الأيوبيين واردب الشعير يساوى نصف هذه القيمة، واردب الغلة من القمح والشعير يعادل خمسي الدينار الذهبى فان الدينار الجيشي على هذا كان يساوى ثلثى الدينار الذهبي .

ويؤكد الباحث أنه ما دامت هناك علاقة بسيطة بين ما ذكره النابلسي وتلك الأرقام المستخدمة فى الحسابات النظرية فان جميع هذه

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٩ الحاشية رقم ٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٣ ، والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩١ .

الأرقام تعدّ تقريبيــة .(١)

ولا شك فى أن من أسباب عدم امكان تحديد الدينار الجيشي أو تفنيد المحاولات التى بذلت لتحديد العلاقة بينه وبين الدينـــار العادى : -

١ - أن الدينار الجيشي كان وحدة نقدية متقلبة ، شأنه كشـــأن " القيراط " المستخدم فى مصر حتى الآن ، فان مقــــدار القيراط يختلف تبعا لمساحة كل وحدة على حدة ، فكذلـــك كانت القيمة الحقيقية للدينار الجيشي تختلف من سنة الــــى أخرى ، ومن اقطاع الى آخر . وقد سبقت الاشارة الى أن قيمة الدينار الجيشي كانت نسبية تختلف من شخص الى آخــر بحسب رتبته فى الجيش .

٢ - ان قيمة الدينار الذهبى - وهو من مكونات الدينار الجيشـــي - لم تكن تتغير بتغير السلاطين فحسب ، بل كانت تتغير مرات عديدة فى خلال حكم السلطان الواحد تبعا لارتفاع الأسعـــار

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 48, 49.

وانخفاضهـــا .

٣ - ان أسعار القمح والشعير كانت تتغير لأسباب متعددة ،منها ارتفاع مستوى النيل وانخفاضه ، ووقوع الحروب ، وحـــدوث الأوبئـة والأزمـات الاقتصاديّة وكان لكل هذا أثره فى ارتفاع الأسعار وهذا يعنى انخفاض القدرة الشرائية للدينار الذهبى.

وهكذا فان قيمة الدينار الجيشى بالنسبة الى العملة المتداولة تكون فى السنوات المجدبة أو فى المجاعات والأزمات الاقتصاديـــة عندما ترتفع أسعار المواد الغذائية كالقمح والشعير أعلى منها فـــى السنوات الخصيبـة الوفيرة المحصول عندما تكون الأسعار منخفضة .(١)

وكان تقييم كل اقطاع يتم بعد كل روك ، أى بعد مســـح الأراضى الزراعية ، وفيما يتعلق بلفظ " روك " يذكر المستشـــرق بولياك أنه يرجع الى أصل مغولى(٢) غير أن المصطلح استخدم فـــى عصر سابق للعصر المغولى ، استخدمه الأيوبيون ومن قبلهم الفاطميون ،

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 49.

(٢) Poliak. Feud a lism in Egypt, Syria, Palestine and Lebonon, P. 2.3

والمرجح أن تكون الكلمة مأخوذة من الكلمة القبطية " روش " وتعني : قياس الأرض بحبل ، أو تكون مأخوذة من الكلمة الديموطيقية " روخ - Rhrukh " ومعناها : توزيع الأراضي .

وعملية مسح الأراضي عملية مصرية قديمة قد ترجع الى عهود الفراعنة ، فقد كانت الأراضي تمسح وتقدر المساحات الزراعية بهدف ربط الضرائب . (١)

ومن الوقائع السابقة على العصر المغولي لفترة طويلة أن عبيد الله بن الحبحاب - وكان مشرفا ماليا في مصر في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك - قام بمسح أراضي مصر عند قدومه اليها سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٤ م.

وكذلك فعل وليد بن رفاعة عندما تولى على مصر سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م. فقد قام بمسح أراضي مصر واحصاء سكانها أسوة بما قام به سلفه

---

(١) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٠٥ ، المقريزي : الخطط جـ١ ص ٨٦ ، ٨٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٨ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ١٣ .

عبيد الله بن الحبحاب .(١)

وفى عهد الخليفة العباسي المعتز الذى تولى الخلافة سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م. شارك متولّى الخراج فى مصر أحمد بن محمد بن المدبّر فى مسح الأراضي الزراعية وبعدها زاد خراج الفدان من دينار واحد الى أربعة دنانير فى كل سنة .(٢)

وفى العصر الفاطمى شكا المقطعون من عسكريين ومدنيين من نقص عائدات اقطاعاتهم سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. فاستجاب الأفضل بدر الجمالى لمشورة المأمون البطائحى رغبة منه فى حلّ تلك المشكلة فأجرى مسحا شاملا للأراضى الزراعية وأعاد توزيع الاقطاعات من

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦، الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٥ - ٧٩ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٧٤- ٧٥، ٩٨-٩٩، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٨٧.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٤٧ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٩ ، ١٠٣ ، ٣١٤.

جديد . وقد أورد أبو صالح الأرمني بعض المعلومات عن هذا الروك منها ذكر النواحي المصرية في الاقطاعات التى كانت تحت أيدى الفاطميين ، وذكر المتحصلات من اقطاعاتهم في الاسكندرية ، ودمياط، وتنيس ، وقفط ، ونقادة ، وبركة الحبش .(٢)(١)

ويبدو أن تلك المعلومات كانت عونا للسلطان صلاح الدين في اجراء روكه سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م(٣). ولا شك في أن صلاح الدين أراد بهذا الروك اعادة توزيع الاقطاعات من جديد ، واقامة النظام المالي في مصر على أساس ذلك ، فقد كان من الضروري للدولة الأيوبية وهي بصدد تنظيم الأمور المالية في البلاد أن تعيد مسح الأراضي لتحديد

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٦ الورقة ٨١-٨٢ ، المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٨٣ ، وحسنين ربيع : النظم المالية ص ١٣ .

(٢) أبو صالح الأرمني : كنائس مصر وأديرتها ص ١٠ - ١٢ .

(٣) الروك الصلاحي : هو الروك الذى قام به صلاح الدين ، وهو اجراء زراعي معروف في مصر وكان الغرض منه تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال الخراجية تعديلا مناسبا لما يطرأ على الأرض من تغيير بالنقص أو الزيادة في مساحتها بين فينة وأخرى . (أنظر المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢ الحاشية رقم ٣) .

العبرة على أسس سليمة .

فعلى سبيل المثال كانت عبرة بلدة أبوكسا من بلاد الفيوم خمسة عشر ألفا وخمسة وثمانين دينارا ونصف دينار [(١)] ، وعبرة بلدة اللاهون وأم التحاوير أربعة آلاف دينار حبشي [(٢)] ، وعبرة بلدة بموية أربعة وثلاثين ألفا ومائة وعشرة دنانير حبشية على حكم الاقطاع [(٣)] ، وكانت عبرة بلدة دموه الدائر ألفا ومئتى دينار حبشي [(٤)] .

وكان يراعى عند تقدير العبرة حجم زمام البلدة ، ومساحة الأراضى الصالحة للزراعة فيها ، ومدى جودة الأرض وخصبها ، وما تغلّه من محصول ، وما بها من مصادر للمياه .

---

(١) النابلسي : تاريخ الفيوم ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢

(٣) المصدر السابق ص ٦٩

(٤) المصدر السابق ص ١٠٠ .

وقد أسند صلاح الدين مهمة الاشراف على الروك الى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى[١] .

ولم تتعرض المصادر لذكر المدة التى استغرقتها عملية اجراء الروك ، غير أنه بالرجوع الى " المتجددات " للقاضى الفاضل ، وما اقتبسه أبو شامة فى " الروضتين " عن الأصفهاني يتبين أن الروك الصلاحي كان له تأثير مباشر فى اعادة توزيع الاقطاعات لمدة تزيد على عشر سنوات[٢] .

ويبدو أن الروك الصلاحي هو الروك الوحيد الذى تمّ فى عهد الدولة الأيوبية ، يدل على هذا ما ورد فى وصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه ، اذ نصحه بأن يستند فى تقديره

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٣ ، ٧٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ ، وجمال الدين الشيال فى طريقة مسح الأراضى وتقدير الخراج فى مصر الاسلامية . مقال فى مجلة الثقافة ، العدد ٩٧ نوفمبر ١٩٤٠ ص ٢٤ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٦٢ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

للعبرة الى ما كان سائدا فى زمن السلطان صلاح الدين .[(١)]

ويبدو أن تقييم الاقطاع ظل على حاله طيلة العصر الأيوبى وفقا لروك صلاح الدين.[(٢)] ولم يغفل نظام الاقطاع الأيوبى أمورا أخرى أشير اليها بمصطلحات خاصة كالفواضل والتفاوت والنواقص .

وهذه - وان بدت من الأمور اليسيرة - روعى وضع تنظيم لها يستهدف تحقيق الدقة ، فالفواضل يقصد بها ما زاد فى ربط العبرة على القيمة المخصصة للمقطع ، كأن تكون عبرة ناحية خمسة آلاف دينار ، والمبلغ المخصص للمقطع يقل عن ذلك بمائتى دينار مثلا ، فهذا القدر يعرف بالفواضل ، وعلى المقطع أن يعيده الى ديوان الجيش.[(٣)]

والتفاوت هو ما ينتج من عدم استخدام المقطع من بداية العام ، فليس له حق الانتفاع بعبرة اقطاعه كاملة ، فاذا كان المقطع يتقاضى

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 51.

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ الورقة ٩٢ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٥٥ .

جامكية قبل اقطاعه مدة ثلاثة أشهر مثلا ثم أقطع ناحية بالعبرة وبقى بها فانه لا يحقّ له الانتفاع بالعبرة كاملة ، وتكون الفترة التى قضاها بجامكية تمثل ربع السنة ، ولا يستحق من العبرة الا ثلاثة أرباعها ، أما الباقى فهو الذى يطلق عليه اسم التفاوت ،أى ما توفّر ممّا فات من المدّة ويكون بنسبة من المتحصل تتفق مع الفترة الباقية من السنة ، ويعاد الباقى الى الديوان .(١)

وأما النواقص فيقصد بها نقص مقدار العبرة من القيمة التى يستحقها المقطع ، كأن يقطع أمير اقطاعا ذا عبرة محدّدة أقلّ مما يفترض أن يغلّه الاقطاع ويحصل عليه المقطع ، وحينئذ يستكمل القدر الناقص من ديوان الجيش نقدا .(٢)

ويدل هذا على مدى الدقة التى كانت طريقة حساب العبرة تسير وفقها .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(٢) البندارى : البرق الشامي جـ ١ ص ١٢٢ .

نظـام الانتقـال الاقطاعـى :

انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر :

كان من خصائص الاقطاع الأيوبى جواز انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر ، لكن ذلك الانتقال لم يكن بطريق الوراثة الا فى حالات استثنائية خاصة (١) ، فالقاعدة العامة فى انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر أن يكون ذلك بغير طريق الوراثة ، ففى سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م. منح السلطان صلاح الدين مدينة حماة لابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بعد موت صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين (٢) .

ومن الحالات التى كثر فيها انتقال الاقطاع ما جرى عليه العرف الأيوبى من أن كل سلطان جديد يصدر توقيعات جديدة بالاقطاعات

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة (أيوبيون) ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ١ ق ١ ص ٣٥ ، اليافعى : مرآة الجنان جـ ٣ ص ٣٩٩ .

عند توليه السلطنة .(١)

وهناك حالات استبدال الاقطاع أو جزء منه ، مثال ذلك ما أشارت اليه المصادر من تنازل شمس الدولة توران شاه بن أيوب في سنة ٥٧٥هـ. / ١١٧٩م. عن بعلبك ليحصل على الاسكندرية عوضا عنها ، وقد استجاب صلاح الدين لرغبته ، وأقطع بعلبك لابن أخيه عز الدين فرخ شاه بن شاهنشاه ، وتسلّم كل منهما اقطاعه الجديد .(٢)

ومن حالات انتقال الاقطاع ما كان يحدث من قيام السلطان بنقل المقطعين ، من ذلك ما قام به صلاح الدين في سنة ٥٨٢هـ. / ١١٨٦م. من اقطاع دمشق لابنه الملك الأفضل ، واقطاع مصر لابنه العزيز عثمان ، واسترجاعه حماة من أخيه العادل ومنحه حران والرها بدلا منهما ، واقطاع ابن أخيه تقي الدين عمر منبج والمعرّة وكفرطاب

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٦١ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٠٤ ، وأبو الغداء : المختصر جـ ٣ ص ٦٢ .

وميافارقين بالاضافة الى حماة .(١)

ومن الأمثلة على انتقال الاقطاع كذلك من غير طريق الوراثة ما حدث فى سنة ٥٨٦هـ./ ١١٩٠م. من أن صلاح الدين أقطع اربل لأخيه مظفر الدين بورى بعد وفاة صاحبها زين الدين بن يوسف بن على كوجك ، وأضاف شهرزور الى اقطاع أخيه مظفر الدين .(٢)

وكان من الجائز أن يعوّض المقطع عن اقطاعه باقطاع آخر أو بمال ففى سنة ٦١١هـ./ ١٢١٤م. أخذ الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل قلعة صرخد من الأمير ابن قراجا وعوّضه عنها مالا واقطاعا .(٣)

وفى سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م. تسلم الملك الصالح نجم الدين أيوب دمشق وأعمالها من الملك الجواد يونس وأقطعه عوضا عنها سنجار والرقة

---

(١) أبو الغداء : المختصر جـ ٣ ص ٧٠ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٤٥ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ١١٦-١١٧ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٣ .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٤٧

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢١١ .

وعانـــــة .(١)

وفى سنة ٦٤٧هـ./١٢٤٩م. بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب قام نائب السلطنة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ باعادة توزيع الاقطاعات بمنشورات وتوقيعات صادرة منه .(٢)

وكانت هناك ترتيبات خاصة تتبع عند خروج المقطع القديم مـن اقطاعه ودخول المقطع الجديد اليه ، فقد كان اسم المقطع القديم يرفـع من سجلات ديوان الاقطاعات ، ويثبت فيها اسم المقطع الجديد فى صحيفة ذلك الاقطاع .(٣) ويتم انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر بمقتضى منشـــور مؤرخ يصدر عن ديوان الجيش تنفيذا لأمر السلطان يوضح فيه اسم المقطع الجديد واسم المقطع السابق ، مع توضيح ما قد يكون متبقيا على المقطـــع السابق من أموال .(٤)

وكان المتبع عند انتقال الاقطاع المزروع بقصب السكر من مقطع الى آخر أن يقوم المقطع القديم بريّ قصبه قبل اخلاء الأرض . فاذا ما انتهى من ذلك خرج وسلم الأرض الى المقطع الجديد ، فاذا لم يرو المقطع القديـــم أرضه وسقاها المقطع الجديد فان المحصول كله يكون له .(٥)

---

(١) أبو الفداء : المختصر جـ ٣ ص ١٦٣

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ الورقة ٩٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٤٣

(٣) النويرى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٠٢

(٤) النويرى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٠١

(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

وقد جرى العرف فى النظام الاقطاعى فى حالة انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر ألا ينقل المقطع القديم معه شيئا من الأتبان بل تبقى ضمانا لغذاء الماشية ،[١] ويترك كذلك ما فى المخازن من التقاوى السلطانية.[٢]

د يوان الجيش د يوان الاقطاع :

كان ديوان الجيش هو الديوان المختص بالاقطاع باعتبار أن الاقطاع الأيوبى كان اقطاعا حربيا ، وعلى ذلك كان تسجيل الاقطاعات وتقديرها وتوزيعها من اختصاص ذلك الديوان .

وقد ذكر المقريزى أن ديوان الجيش عند الفاطميين كان يضم قسما للرواتب بالاضافة الى القسم الرئيسى المختص بأمور الجيش .[٣] فلما أدخل الاقطاع الحربى أنشأ الفاطميون قسما ثالثا فى ديوان الجيش يختص بالاقطاع .[٤]

وذكر القلقشندى أن ديوان الجيش يتكون من الأقسام الثلاثة التى كان يتكون منها فى أواخر العصر الفاطمى ، وكان كل قسم من تلك الأقسام يحمل اسم ديوان ، وهذه الدواوين هى : -

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٤

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٩١ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٧

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠١

(٤) Hassanein Rabie: The Financial system of Egypt, P. 38

١ - د يوان الجيش ويختص بشئون الحرب .

٢ - د يوان الرواتب ويختص بالرواتب والجوامك .

٣ - د يوان الا قطاع ويختص بضبط اقطاعات الجند .(١)

وكان ذلك القسم من د يوان الجيش وهو الذى عرف باسم د يوان الا قطاع مختصا بتقدير عبرة الا قطاعات وبشئون المقطعين والمستحقات المتأخرة فى الأقاليم . وقد قيل انه كان فى د يوان المجلس قسم له حق الاشراف على أعمال د يوان الا قطاع ، وهذا يدل على أنه قد كان لصاحب د يوان المجلس حق الا شراف على شئون الا قطاعات وليس لناظر الجيش ، أو ربما كان د ور د يوان المجلس مقتصرا على الرقابة الى جانب د يوان الجيش صاحب الحق فى الا شراف .(٢)

ويذكر البعض أن د يوان الرواتب قد ألغى بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى فى وقت لم تحدده المصادر .(٣)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، حسنين ربيع: النظم المالية ١١٦

(٢) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٩٣- ٤٩٤ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٧ .

(٣) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 39

غير أن هذا القول ليس له ما يؤيده ، ولا توجد نصوص صريحة تشير الى ذلك ، بل على العكس ، هناك اشارات الى ما بلغته النفقة على الجيش الأيوبي في سنة ٥٧٧ هـ./١١٨١م. فبعد أن أشارت المصادر الى قيمة النفقة وضعت في الاعتبار - بالاضافة الى ذلك - جامكيات الأمراء المملوكين ورواتبهم ، وهم الأمراء الذين انحلت عنهم اقطاعاتهم وصاروا طبقة مستثناه تعيش على الرواتب.[١] وبالاضافة الى ذلك جرى النظام في ديوان الجيش على تحرير جريدة بأسماء العساكر الذين يتقاضون أجورهم نقدا.[٢]

وهذان الأمران يدلان على عدم الغاء ديوان الرواتب .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كان ديوان الجيش هو الديوان المسئول عن شئون الجيش والاقطاع وغير ذلك مما يدخل في اختصاصه ، وتتم مباشرة ذلك تحت اشراف ناظر الجيش .

ولغلبة الاقطاع الحربي كان يطلق على ديوان الجيش اسم ديوان الاقطاع[٣] ، وفي هذا دليل على مدى اعتماد النظام الحربي الأيوبي

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٥ ، الخطط جـ ١ ص ٨٦-٨٧ ، العريني : مصر في عهد الأيوبيين ص ١٥٢ الحاشية ١ .
(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٢ - ٢٠٣
(٣) ابن فضل الله العمري : التعريف ص ٨٩ .

على التوزيع الاقطاعـــي .(١)

وظيفة ديوان الجيش (ديوان الاقطاع) :

يتضح مما أوردته المصادر أن منح الاقطاعات كان من الأعمال الأساسية لديوان الجيش في العصر الأيوبي .

وكان ديوان الجيش يعتمد على المعلومات التى يتلقاها من ديوان المال عن الأحوال المالية لأقاليم مصر ، وبصفة خاصة ما يتعلق بالأراضى التى تروى بمياه النيل ، وبيان المساحات التى تمّ استصلاحها والأراضى التى صارت فى حكم البور ، وقد كان لتلك المعلومات أثرها فى تقييم الاقطاعات .(٢) وبمرور الزمن تمّ تثبيت ديوان الجيش واستقراره .(٣)

وكان ديوان الجيش يتلقى من السلطان منشورات منح الاقطاعات(٤) وفى بعض الأحيان كان يتلقاها من نائب السلطان ، ومما يذكر أن وظيفة نائب السلطان كانت من الوظائف التى ألغاها السلطان الناصر

---

(١) نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ص ٢٩

(٢) النابلسي : لمع القوانين ص ٢٣ .

(٣) Hassanein Rbabie: The Financial System of Egypt, P. 39

(٤) السبكى : معيد النعم ص ١٦ - ١٧ .

محمد بن قلاوون بعد ذلك .(١)

ولقد كان من اختصاصات ديوان الجيش في العصر الأيوبي توزيع الاقطاعات بين الأمراء المقطعين ، بالاضافة الى مسئوليته عن الانفاق العام على الجيش والتعبئة ، والأسلحة والمؤن ، والحاميات والحصون والقلاع ، الى جانب ما يتصل بالاقطاعات من الاحتفاظ بسجلات (جرائد) بحصر أرباب الاقطاعات على اختلاف طبقاتهم ، وابتداء امرة كل منهم بحسب السنين الهلالية ، وعمّن انتقل الاقطاع الى كل منهم ، ومن هذه الجرائد ما يشمل أسماء أفراد الجيش السلطاني وجيوش الأمراء المقطعين .

وكان لديوان الجيش حق الاشراف على الاقطاعات ، والتأكد من قيام المقطعين بالتزاماتهم للسلطان .(٢)

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٢) عبد الله الغامدي : استرداد بيت المقدس ص ١١٠ .

وكانت الاشارة الى عبرة اقطاع كل أمير " رمزا لا تصريحا " . ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرّية التى توخاها موظفو الديوان فتجنب الديوان أن تذكر صراحة عبرة الاقطاع أو متحصلاته الآ بناء على مرسوم من السلطان (١) .

ولضمان عدم التلاعب فى الاقطاعات كانت هناك سجلات مقابلة عرفت باسم جرائد الاقطاع خُصص لها موظفون آخرون ، وفيها يسجّل اقطاعات كل اقليم ، وما يتضمنه كل اقطاع من كفور وضياع وغير ذلك ، والعبرة المالية لكل اقليم ، وقيمة ما تحصل منها ، وانتقالات الاقطاع من شخص الى آخر ، كما جرت العادة فى ديوان الاقطاع على تحرير جريدة أخرى بأسماء العسكر الذين يتقاضون أجورهم نقدا لا اقطاعا (٢) .

وكان رئيس ديوان الجيش يُكلف بعض الموظفين كل عام بالحصول على نسخة من قوانين ريّ البلاد لمعرفة الزيادة والنقص فى الأراضي

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص٢٠٠-٢٠٢ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٦٢ ، عبدالله الغامدى : استرداد بيت المقدس ص ١١٢- ١١٣ .

(٢) النويرى : المصدر السابق ، حسنين ربيع : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

المزروعة ، والحصول على نسخة من سجلات اقاليم لمعرفة ما يتعلق بأمور موارد ها المالية (١) .

وحرص د يوان الجيش أيضا على متابعة الأحوال الزراعية في الا قطاعات ومراقبتها واعادة النظر كل ثلاثة أعوام في الأموال المفروضة على أصحابها وتسجيل ما يطرأ من تعد يلات عليها (٢) ، وكان من اختصاصات د يوان الجيش كذ لك تسجيل حالات التفاوت الا قطاعي ، وهى الفروق الناتجة عن انتقال الجندى بعد مضى فترة من السنة من فئة أصحاب الجوامك والرواتب الى فئة ذوى الا قطاعات ، أى اذا انتقل الجندى الى اقطاع جديد للمرة الأولى فانه يستحق دخل اقطاعه من تاريخ تسلّمه وليس من أول السنة الهلالية أو الخراجية (٣) .

كما كان من اختصاص د يوان الجيش تقد ير المبالغ المسماة بالغيبانات ، وهى الأموال التى تخصم من الجندى نتيجة غيابه عن

---

(١) النابلسي : لمع القوانين ص ٢٣ .

(٢) Poliak: Feud a Lism in Egypt, Syria, Palestine and Lebonon, P. 22

(٣) حسنين ربيع : النظم المالية ص ٦٣

الخدمة بدون اذن ، فكان الديوان يقوم بخصم مبالغ مقابل مدة الغياب.

ومن الأموال التي كان ديوان الجيش يقوم بتسجيلها ما عرف باسم الفواضل ، وهي الفرق الفعلي بين عبرة ناحية من النواحي وما هو مقرر لصاحب الاقطاع . ويقال مثل ذلك بشأن ما عُرف باسم المتوفّر ، وهو جملة أموال توفّرت بسبب وفاة الجندي ، فقد جرى العرف أن يكون راتبه من أول السنة الى يوم وفاته لورثته ، أما بقية السنة - أي ما بعد وفاته - فهو ما اصطُلح على تسميته بالمتوفّر ويردّ الى الديوان ، فاذا لم يكن للمتوفى ورثة صار جميع ماله متوفّرا (١) .

وقد تولّى ديوان الجيش في عهد صلاح الدين وابنه العزيز عثمان ، الأسعد أبو المكارم ابن مماتي صاحب قوانين الدواوين (٢) .

---

(١) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(٢) لما انتقل صلاح الدين الى دمشق في صيف عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م. واتخذها مقرا لعملياته الحربية ضد الصليبيين أنشا بها فرعا من ديوان الجيش ، وأسند ولاية ذلك الى والي دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة .
(أنظر : نظير حسان سعداوي : جيش مصر في أيام صلاح الدين ص ٣٢)

ثم تولاّه في عهد السلطان العادل القاضي ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج وكان من المشتغلين بالتاريخ الا أن ما صنّفه في حكم المفقود[(١)] .

وتولاّه في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر المعروف وكان له أثر كبير في حوادث عهد السلطان الصالح[(٢)] .

وكان عمل ديوان الجيش يتم برياسة ناظر الجيش ووظيفته من الوظائف المهمة ، ذلك أن ديوان الجيش يحتاج الناظر فيه الى أن تجتمع فيه صفات متى اختلّت منها واحدة اختلّ بازائها حال من أحوال ديوانه ، فيجب أن يتوفر فيه حسن التدبير ، بارضاء الأجناد بما يقطعونه بحيث يجمع بين رضاهم بكفايتهم وتوفير ما يمكن توفيره للديوان . وأن يكون كبير القدر عزيز النفس يحظى بالاحترام لدى السلطان ، فلقد

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٤ .

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٨٤ ، ٢٩٠ .

كان أمراء الدولة يتقربون اليه ويخطبون ودّه حرصا على مصالحهم واقطاعاتهم وأجنادهم . (١)

وكان من اختصاصات ناظر الجيش النظر فى الاقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان بشأنها ، وأخذ خطّه عليها . (٢) كما كان يتمّ تحت اشرافه صياغة براءات الاقطاعات (عقود المنح) وتسجيلها .

وكان يساعد ناظر الجيش عدد من كبار الموظفين يعيّنهم السلطان منهم صاحب ديوان الجيش وكتّابه وشهوده . (٣)

وكان صاحب ديوان الجيش يلى فى المرتبة ناظر الجيش وهو

---

(١) النابلسي : لمع القوانين ص ٢٣ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) القلقشندى : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

الذى ينوب عنه فى غيابه[1] ، وكان له اختصاصات أخرى تتعلق بتصريف بعض الأمور . ويلى صاحب الديوان فى المرتبة كاتب الجيش ، ومن اختصاصاته : تنظيم أرباب الاقطاعات والنقود والمكيلات من الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، والمماليك السلطانية ، وأجناد الحلقة ، وأمراء التركمان ، والعربان ، وتسجيل ذلك كله فى جريدة مرتبة على حروف العجم يثبت فيها أسماءهم ، وتسمى تلك الجريدة بالجريدة الجيشية ، وتتضمن الاسم ، وتاريخ ابتداء الامرة أو الجندية ، وعمن انتقل اليه الاقطاع . وتخصص جريدة أخرى للاقطاع وقدره واسم صاحبه ، وتخصص جريدة ثالثة لأسماء أرباب النقود والمكيلات وقيمتها[2] .

ومن موظفى ديوان الجيش أيضا الشهود والكتّاب الذين يسجّلون تفاصيل الاقطاعات تحت اشراف ناظر الجيش وصاحب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١ ، ٣٤ ،
المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٧ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩٤ ،
Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 41.

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، نظير حسان سعداوى : جيش مصر ص ٣٠ .

الديـــــوان . (١)

د يوان الأمير المقطـع فى الاقطـاع :

كان للمقطع د يوان فرعى يتولّى شئون اقطاعه ، ويعتمد فيـــه على موظفيه فيما يتعلق بجمع الضرائب والمحافظة على الأمن والعنايـــة بشئون الزراعة والريّ وغير ذلك من شئون الاقطـاع .

وكان لكل د يوان فرعى وكيل يساعده عدد من الكتّـاب.

ويبدو أن الوكيل كان هو المسئول الرئيسي فى الاقطـــاع ، وهناك وثيقتـان من وثائق الجنيزة تلقيان بعض الأضواء على وظيفـــة وكيل الاقطاع ، أولاهما أجزاء من رسالة غير مؤرخة يشكر فيها المقطـع وكيله لقيامه بواجباته وابلاغ الوالي أنه قد تمّ توزيع معظم قصب السكر على الفلاحين وأنه لم يبق غير قدر قليل للمقطع ، ويحث المقطع وكيـــله على الاسراع فى تسليم ما تمّ جمعه من الاقطاع لانشغاله بالاستعداد لخوض حرب طويلة . وهذا الجزء من الرسالة يشير الى أن وكيـــــل الاقطـــاع ينوب عن المقطـع ، وكان له نفوذ وسلطان فى الاقطاع . (٢)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١ ، جـ ١١ ص ٣٢١ .

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 65

أما الوثيقة الأخرى فهى جزء من رسالة مؤرخة فى ٧ من ربيع الأول سنة ٦٤٤ هـ . / ٢٣ من يوليو سنة ١٢٤٦م وهى موجهة الى قرية " منية باسك " .(١) ويطلب فيها المرسل مساعدة من الشيخ مسلم أبو على وكيل شمس الدين ايلدكز البرطاسي لأنه بسبب ارتفاع الأسعار صار مدينا ولا يجد طعاما سوى الخبز والبصل .(٢)

ومن المفترض أنه كان فى كل اقطاع وكيل ، وأن الوكيل كان يتمتع بنفوذ قوى وله ثروة كما كان للشيخ مسلم .

ومن وصية الملك الصالح أيوب يفهم أن صاحب الاقطاع كان يستخدم أربعة وكلاء أو خمسة اذا كان اقطاعه مبعثرا مغرقا فى أقاليم متباعدة .(٣)

---

(١) تعرف الآن باسم " المنيا " وتتبع مركز الصف بمحافظة الجيزة .

(٢) Hassanein Rabie: The Financial System of Egypt, P. 65

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ الورقة ٩١ - ٩٢ .

ويمكن القول ان الوكيل كان مسئولا عن جميع العائدات المالية للاقطاع ، وتسجيلها فى سجلّ خاص ، وعمل نسخة من هذا السجل لحفظها فى الديوان السلطانى لتزوّد السلطان بالمعلومات عن دخل الاقطاع . ولقد كانت تلك المعلومات ذات فائدة ، فقد كان يرجع اليها عند اللزوم أو عندما يزيد السلطان التحقيق فى شكوى معيّنة .

وتشير المصادر الى أن وظيفة الوكيل عرفت فيما بعد باسم الاستادار ، وكان هو الذى يتحدث مع الكتّاب الذين يدّونون متعلقات الأمير ويصرّف أمورهم ، وهو حلقة الاتصال بين الأمير والفلاحين وغيرهم ، وكان عليه أن يعامل أهل الاقطاع من الفلاحين بالرفق ، ويرعى أموال الأمير بأمانة ويؤدى حقه كاملا .[(١)]

وكان الاستادار - باعتباره وكيلا - ينوب عن المقطع لدى الديوان السلطانى وخاصة فى المسائل التى تتعلق بالضرائب والخدمات

---

(١) السبكى : معيد النعم ص ٢٦ - ٢٧ .

المطلوبة من المقطع . وكان الاستادار يباشر عمله بالمرور على القرى والمناطق الداخلة فى اقطاع الأمير ، وكانت تلك الزيارات فى معظم الأحوال لجمع الضرائب . وكان كذلك مسئولا عن مباشرة الفلاحين والاشراف على أعمالهم فى الزراعة ومتابعة تنفيذ ما يكلفهم به المقطع من حفر القنوات وبناء الاسطبلات للسلطان . (١)

وتوضح نصيحة السبكى الموجهة الى الاستادار طبيعة العمل الذى كان يقوم به فى الاقطاع ، فقد نصحه بحسن معاملة الفلاحين ، وعدم ارهاقهم بضرائب غير مستحقة للأمير . (٢)

ومن أهم الموظفين فى الاقطاع بعد الاستادار الشادّ أو المشدّ ، (٣) وكان يتمتع بسلطة كبيرة فى الاقطاع لكونه مسئولا عن جمع المتبقيات من الضرائب وخاصة من المقهرين ، وكان يمدّ يد المساعدة الى العاملين المحليين فى الاقطاع .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١١١ ، ٤٣٤ ؛ الخطط جـ٢ ص ٢٢٩

(٢) السبكى : معيد النعم ص ٣٩ - ٤٠ ،

Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt, P. 66

(٣) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ص ١٠١

وكان هناك مسئولون آخرون فى الاقطاع مثل : خولى البحر ، والخفراء ، وأرباب الدرك[(١)] ، والنجارين ، وخولى الأقصاب ، والمشرف على أوقاف القرية وحراس النهر[(٢)] .

وهكذا يتضح أن تلك التنظيمات استهدفت تحقيق الغرض الأساسى من الاقطاع الحربى فى العصر الأيوبى ، باعتباره بديلا للرواتب والتجهيزات العسكرية ، وجعل مسئولية اعداد الجيوش مسئولية جماعية يشارك فيها الأمراء بمعاونتهم للسلطان فى الاستعدادات ، والاسراع الى مواجهة الأعداء ، فكان فى ذلك الحين أسلوبا صالحا للاعداد للجهاد والتصدى لأعداء الاسلام .

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ص ١٠٢ — ١٠٤

(٢) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ص ٩٨ — ٩٩

الخاتمة

نتائج البحث

لقد تناول هذا البحث موضوعا يصعب جمع مادته العلمية من بين الأحداث والوقائع التى عرضتها كتب التاريخ فى فترة العصر الأيوبي . فقد عنيت تلك الكتب أكثر ما عنيت بحركة الجهاد الاسلامي لمواجهة الغزو الصليبي على مدى بضعة قرون . ووردت فيها مادة هذا البحث بصورة عرضية متناثرة ، فكان جمعها وتصنيفها وترتيبها عملا شاقا مضنيا ولكن فى نهاية الأمر جاء فى هذه الصورة التى يرجى أن تكون أقرب الى الوفاء بمتطلبات البحث ، وكانت له نتائج ذات قدر .

تبيّن أن نظام الاقطاع الحربي فى العصر الأيوبى لم يكن يعنى استفادة الأمراء وأصحاب الاقطاعات من الأرض التى تمنح لهم ، وانما كان هذا النظام فى صورته الشاملة تنظيما اقتصاديا وعسكريا واداريا وسياسيا ، وان غلب عليه الجانب الحربى فهو الأساس الذى يمنح الاقطاع لتحقيقه .

وقد تتبع البحث بدايات الاقطاع في التاريخ الاسلامى منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووجّه القول بأن عثمان رضى الله عنه كان أول من أقطع القطائع بمعنى أنه توسّع في الاقطاع بشكل كبير لم يسبقه اليه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وبيّن أن الاقطاع في العصر العباسي قد قام على الأصول الاسلامية السابقة دون أن يتأثر بنظم الاقطاع الساسانى فى فارس قبل الفتح الاسلامى ، وأن بنى العباسى قد استندوا الى آراء الفقهاء المتعلقة بالاقطاع واسترجعوا من الاقطاعات ما كان مخالفا لتلك الآراء .

ووضّح البحث أن بنى بويه استحدثوا نظام الاقطاع الذى يمنح فيه القادة العسكريون والجند اقطاعات بدلا من العطاء ، وجعلوا ديوان الجيش هو المختصّ بتلك الاقطاعات .

وأشار البحث الى أن السلاجقة قد أخذوا بمبدأ الاقطاع الحربي عن البويهيين وتوسعوا فيه ، وعلّل لذلك باتساع رقعة الدولة وصعوبة

السيطرة عليها وكثرة النفقات المالية ، وبيّن أن من نتائجه تجدّد النشاط الحربي لدى كثير من أمراء السلاجقة .

وعرض البحث للاقطاع فى الدولة الزنكية وبيّن أنه قد أخذ من نظام الاقطاع السلجوقي مع اضافة مبدأ توريث الاقطاع بعد وفاة صاحبه لأبنائه ، وبيّن أن هذا المبدأ كان له أثر كبير فى تشجيع الجند ودفعهم الى القتال والاستبسال فيه .

وقد عرض البحث لانتقال نظام الاقطاع الزنكى الى الدولة الأيوبية مع التخلي عن مبدأ توريث الاقطاع استنادا الى أن صاحب الاقطاع لا بد أن يقدم خدماته العسكرية كاملة وهذا يناقضه توريث الاقطاع لأبنائه الصغار بعد وفاته .

ومن الأمور التى ناقشها البحث مقارنة بين الاقطاع الأيوبي والاقطاع الأوربي فى العصور الوسطى ووضّح أن اقطاع الأيوبيين لم يكن مأخوذا من الاقطاع الأوربى ولا متأثرا به ، ولذلك كانت الأحوال

والنتائج فى كلا النظامين مختلفة .

وعرض البحث كذلك لما فعله صلاح الدين من اعادة توزيع الاقطاعات فى مصر بعد اجراء المسح الزراعي للأراضى المصرية .

وفصّل البحث فى عرض الخدمات العسكرية المفروضة على أصحاب الاقطاعات وكذلك عرض للخدمات المدنية من اقرار للأمن ومتابعة لأعمال الزراعة وعناية بالجسور والقنوات وجمع للضرائب ، وفصّل أنواع الوظائف المدنية فى الاقطاع والقائمين بها . وعرض بالتفصيل أيضا لأنواع الضرائب والرسوم الاقطاعية .

وبيّن البحث حقوق صاحب الاقطاع فى العصر الأيوبى وسلطاته ، وما كانت الدولة الأيوبية تفرضه عليه من قيود لمنع استغلاله للفلاحين .

وعرض الفصل لأهمية النظام الاقطاعي من حيث كونه المصدر الأساسي لدخل الدولة . والمورد الدائم للانفاق على الجيش والأسطول ، وهذا الجانب يمثل الناحيتين الاقتصادية والعسكرية معا فى نظام الاقطاع .

وفصّل البحث أنواع الضرائب المقررة على الأرض الزراعية والمحصولات . وعرض للاجراءات المتبعة في تسجيل الأراضي وتوزيعها على الفلاحين ، وأنواع السجّلات والأوراق الرسمية الخاصة بذلك .

وناقش كيفية التصرف في الاقطاع بعد وفاة صاحبه وانتهى الى أن الرأى القائل بتوريث الاقطاع رأى مرفوض وقدّم الأدلّة على ذلك .

وعرض البحث لكيفية توزيع الاقطاعات في ظل النظام الأيوبي ، وللتنظيمات والأسس التى قام عليها الاقطاع الحربى الأيوبي ، وناقش ما كان متبعا من تشتيت أجزاء الاقطاع في جهات متباعدة وبيّن أن الهدف من وراء هذه السياسة ضمان استمرار ولاء المقطعين وعدم اتاحة الفرصة لهم للاستغلال أو العصيان ، وناقش كذلك الآثار السيئة لهذه السياسة وأهمها انخفاض عائدات الاقطاعات أو ضياع معظمها بسبب كثرة النفقات .

وعرض البحث لتوقيعات الاقطاع وهى الوثائق الرسمية الخاصة

بمنح الاقطاعات ، فبيّن أنها كانت تصدر عند تولّي سلطان جديد ، أو بعد اجراء مسح للأراضي ، أو بعد وفاة بعض المقطعين أو تنازل بعضهم عن الاقطاع ، وفي غير ذلك من الحالات .

وفصّل البحث أنواع الوثائق التي تسجّل الاقطاع وتثبته في ديوان الجيش ، والمراحل التي تمرّ بها .

وتناول أساليب التوقيعات السلطانية بمنح الاقطاعات ، واختلافها تبعا لمكانة المقطع وصلته بالسلطان ، ووصايا السلطان للمقطع .

وفصّل في بيان تقييم الاقطاعات وهو ما عرف باسم " العبرة " ، وعرض للدينار الجيشي فعرّفه وبيّن اختلاف قيمته باختلاف طبقات المجتمع الأيوبي وبتقلب قيمة الدينار الذهبي المتداول .

وفصّل البحث في بيان اختصاصات ديوان الجيش وقد كان هو المختص بشئون الاقطاعات ، وتناول الأعمال المنوطة بهذا الديوان .

وفي الختام عرض للديوان الخاص بصاحب الاقطاع فبيّن اختصاصاته

وذكر المسئولين فيه عن شئون الاقطاع ووظائفهم .

ولقد كان استخلاص مادة هذا البحث من بين ما كتبه المؤرخون عن الجهاد الاسلامي ضد الغزو الصليبي عملا شاقا وصعبا ، فقد تناثرت المعلومات في ثنايا الأحداث التاريخية التي هي موضع اهتمام المؤرخين ، وقد بذل جهد كبير في لمّ شتات هذه المعلومات وتصنيفها وترتيبها ، وعرضها هذا العرض الذي يرجى أن يكون أقرب الى الوضوح والدقة في تناول هذا الموضوع المهم .

والله هو الموفق والمستعان .

ooooooooooooo

oooooo

*

الملاحق

١ - سجل باقطاع من العصر الفاطمى

وهذه نسخة سجل باقطاع ، عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين لبعض أمراء الدولة ، من انشاء القاضى الفاضل ، وهى : -(١)

أمير المؤمنين - وان عمّ جوده كما عمّ فضل وجوده ، وسار كثير احسانه وبرّه فى سهول المعمور ونجوده ، ورحم الله الخلق بما استأثره دون الخلائق من قربه فى سجوده - فانه يخص بنى القربى من جدّه ، والضاربين معه فى أنصباء مجده ، من سلالته الزكيّه ، وطينته المسكيّه ، وأعراقه الشريفة ، وأنسابه المنيفه ، فكل غرّاء لا تخفى أوضاحها ، الا اذا فاضت أنوارهم ، وكل عذراء لا يعهد اسماحها ، الا اذا راضت أخطارهم .

ولما عرضت بحضرته ورقة من ولده الأمير فلان الذى أقر الله به عين الاسلام ، وأنجز به دين الأيام ، وأطلعه بدرا فى سماء الحسب ، وجلا

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٣٤ - ١٣٦

بأنواره ظلام النـوب ، وامتاح من منبع النبوّة وارتوى ، واستولى على خصائص الفضل الجلىّ واحتوى ، وأعدّ الله لسعد الأمة ذامرة شديد القـوى ، وأدنى الاستحقاق من الغايات حتى تأهّب لأن يكون بالوّاد المقـدّس طوى ، وأضحت كافة المؤمنين مؤمنين على مكارمه ، وأمست كافّه الخائفين خائفين من سيل أنفسهم على صوارمه ، وآراؤه أعلى أن يضاهيها (رأى) وان جلّ خطره ، وأعطيته أرقى أن يدانيها عطاء وان حسن فى الأحوال أثره ، وانما ينبع بملكه منها ما راق بعين اختياره وايثاره ، وسعـد بالانتظام فى سلك جوده الذى يعرضه أبدا لانتثاره ، وتضمّنت هـذه الرقعة الرغبة فى كذا وكذا ، وذكر الديوان كذا .

خرج أمر أمير المؤمنين الى فتاه وناصره ، ووزيره ومظاهره ، السيد الأجلّ الذى انتصر الله به لأمير المؤمنين من أعدائه ، وحسم بحسامـه ما أعضل من عارض الخطب ودائه ، ونطقت بفضله ألسن حسّاده فضلا عـن ألسنة أودّائه ، وسخت الملوك بأنفسها أن تكون فداء له اذا حوّزهـا

المجد في فدائه ، الذى ذخره الله لأمير المؤمنين من آدم ذخيره ،
وجمع له في طاعته بين ايقاظ البصيرة واخلاص السريره ، وفضلت أيامه
على أيام أوليائه بما حلّاها من جميل الأحدوثة وحسن السّيره ، وسهّل
عليه التّقوى في المنافع والعكوف على المصالح ، وأجنى من أقلامه ورماحه
ثمرات النصائح ، وفاز بما حاز من ذخائر العمل الصالح بالمتجر الرّابح ،
وألهمه من حراسه قانون الملك ما قضى بحفظ نظامه ، ولم ينصرف له عزم
الا الى ما صرف اليه رضا ربه ورضا امامه .

ونفذت أوامره بأن يوعز الى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل الى
الديوان الفلانى باقطاعه الناحية وما معها منسوبا اليها وداخلا فيها
الاستقبال (سنة) كذا ،منحة سائغة ، لا يعترضها التكدير ، ونعمة
سابغة ، لا ينقضها التغيير ، وحباء موصول الأسباب ، وعطاء بغير منّ
ولا حساب ، يتحكم فيه على قضايا الاختيار ، وتنفذ فيه أوامره الميمونة
الايراد والاصدار .

٢ ـ نسخة مقاطعة من العصر العباسي

وهذه نسخة مقاطعة بضيعة كتب بها عن صمصام الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، وهي : (١) -

هذا كتاب من صمصام الدولة ، وشمس الملّة ، أبي كاليجار ، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ، بن ركن الدولة أبي علىّ مولى أمير المؤمنين ، لمحمد بن عبد الله ابن شهرام .

انك ذكرت حال ضياعك المعروفة برسدولا والبدريّة من طسّوج نهر الملك ، والحظائر والحصّة بنهر قلّا من طسّوج قطربّل ، وما لحقها : من اختلال الحال ونقصان الارتفاع ، واندواب المشارب ، واستئجام المزارع ، وطمع المجاورين ، وضعف الأكرة والمزارعين ، وظلم العمال والمتصرّفين ، لتطاول غيباتك عنها ، وانقطاعك بالأسفار المتصلة عن استيفاء حقوقها ، واقامة عماراتها ، والانفاق على مصالحها ، والانتصاف من المجاورين لها

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٣٩ - ١٤٣ .

والمعاملين فيها ، ووصفت ما تحتاج الى تكلّفه من الجملة الوافـــرة :
لا حتفار أنهارها ، واحياء مواتها ، واعتمال متعطّلها ، واعادة رسومها ،
واطلاق البذور فيها ، وابتياع العوامل لها ، واختلاف الأكرة اليها .

وسألت أن تقاطع عن حق بيت المال فيها وجمع توابعه ، وسائـــر
لزومه ، على ثلاثة آلاف درهم فى كل سنة ، معونة لك على عمارتها ،
وتمكيناً من اعادتها الى أفضل أحوالها ، وتوسعة عليك فى المعيشـــة
منها .

فانهينا ذلك الى أمير المؤمنين الطائع لله ، وأفضنا بحضرته فيما
أنت عليه من الخلائق الحميده ، والطرائق الرشيدة ، وما لك من الخدمات
القديمة والحديثة ، الموجبة لأن تلحق بنظرائك من الخدم المختصّـين ،
والحواشى المستخلصين ، باجابتك الى ما سألت ، واسعافك بما التمست،
فخرج الأمر - لا زال عاليا - بالرجوع فى ذلك الى كتّاب الدواوين ، وعمّـال
هذه النواحى ، وتعرّف ما عندهم فيه مما يعود بالصّلاح ، ويدعو الـــى

الاحتياط . فرجع اليهم فيما ذكرته وحكيته ، فصدقوك فى جميعه ، وشهدوا لك بصحّته ، وتردّد بينك وبينهم خطاب فى الارتفاع الوافر القديم ، وما توجبه العبر لعدّة سنين ، الى أن استقرّ الأمر على أن توقّعت على هذه الضّياع المسمّاة فى هذا الكتاب خمسةَ آلاف درهم ورقا مرسلا بغير كسر ، ولا كفاية ، ولا حق جزن ، ولا جهبذة ولا محاسبة ، ولا غير ذلك من المؤن كلّها .

ثم أنهينا ذلك الى أمير المؤمنين الطائع لله ، فأمر - زاد الله أمره علوّا - بامضاء ذلك ، على أن يكون هذا المال ، وهو خمسة آلاف درهم مؤدّى فى الوقت الذى تفتتح فيه المقاطعات : وهو أول يوم من المحرّم فى كلّ سنة ، على استقبال السنة الجارية ، سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الخراجية ، على الخراج فى الغلّات الشّتوية والصّيفية ، والمحدثة والمبكّرة الجارية على المساحة ، والحاصل من الغلّات الجارية على المقاسمة والجوالى ، والمراعى ، والأرحاء ، وسائر أبواب المال ، ووجوه الجبايات ، وتقسيط المصالح ،

والحماية ، مع ما يلزم ذلك من التوابع كلّها : قليلها وكثيرها ، والرسوم الثابتة فى الدواوين بأسرها ، وعن كلّ ما أحدث ويحدث بعدها على زيادة الارتفاع ونقصانه ، وتصرّف جميع حالاته : مقاطعة مقررة مؤبّدة ممضاة مخلّدة ، على مرور الليالى والأيّام ، وتعاقب السنين والأعوام لك ولولدك ، وعقبك من بعدك ؛ ومن عسى أن تنتقل هذه الضياع اليه بميراث ، أو بيع ، أو هبة ، أو تمليك ، أو مناقلة ، أو وقف ، أو اجارة أو مبازرة أو مزارعة أو غير ذلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاك عليها ، وتجرى بين الناس المعاملات فيها ، لا يفسخ ذلك ولا يغيّر ، ولا ينقض ولا يبدّل، ولا يزال عن سبيله ، ولا يحال عن جهته ، ولا يعترض عليك ولا على أحد من الناس فيه ولا فى شىء منه ، ولا يتأول عليك ولا على غيرك فيه ، بزيادة عمارة ، ولا زكاء ربيع ، ولا غلو سعر ، ولا اصلاح شرب ، ولا اعتمال خراب ، ولا احياء موات ، ولا بغير ذلك من سائر أسباب وفور الارتفاع ودرور الاستغلال .

وحظر مولانا أمير المؤمنين الطائع لله ، وحظرنا بحظره على كتّاب الدّواوين : أصولها وأزمّتها ، وعمال النواحى والمشرفين عليها ، وجميع المتصرفين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، الاعتراض عليك فى هـذه المقاطعة ، أو ايقاع ثمن أو مساحة على ما كان منها جاريا على الخراج ، أو تقرير أو حزر ، أو قسمة على ما كان منها جاريًا على المقاسمة ، أو أن تدخلها يد مع يدك لناظر أو حاظر أو مستظهر أو معتبر أو متصفّح ، ان كان ما يظهر منها من الفضل على مرور السنين مسوّغا لك ، لا تطالب به ، ولا بمرفق عنه ، ولا على ما ظهر عليه وعلى شىء منه ، ولا يلتمس منك تجديد كتاب ، ولا احضار حجّة ، ولا توقيع به ولا منشور بعد هذا الكتاب : اذ قد صار ذلك لك وفى يدك بهذه المقاطعة ، وصار ما يجب من الفضل بين ما توجبه المسائح والمقاسمات وسائر وجوه الجبايات ، وبين مال هذه المقاطعة المحدودة المذكورة فى هذا الكتاب خارجا عمّا عليه العمّال ، ويرفعه منهم المؤتمنون ، ويوافق عليه المتضمّنون ، على مرور

الأيّام والشهور ، وتعاقب السنين والدّهور ، فلا تقبل في ذلك نصيحة ناصح ، ولا توفير موفّر ، ولا سعاية ساع ، ولا قذف قاذف ، ولا طعن طاعن .

ولا يلزم عن امضاء هذه المقاطعة مئونة ، ولا كلفة ، ولا مصانعة ، ولا مصالحة ، ولا ضريبة ، ولا تقسيط ، ولا عمل بريد ، ولا مصلحة من المصالح السلطانية ، ولا حق حماية ، ولا خفارة ، ولا غير ذلك من جميع الأسباب التي يتطرّق بها عليك ، ولا (على من) بعدك ، لزيادة على مالها المحصور المذكور في هذا الكتاب ، ولا حق خزن ولا جهبذة ، ولا محاسبة ولا مئونة ولا زيادة . ومتى استخرج منك شيء أو من أحد من أنسبائك ، أو ممّن عسى أن تنتقل اليه هذه المقاطعة بشيء زائد عليها على سبيل الظلم والتّأوّل والتعنّت لم يكن ذلك فاسخا لعقدها ، ولا مزيلا لأمرها ، ولا قادحا في صحّتها ، وكان لك أن تطالب بردّ المأخوذ زائدا على مالها ، وكان على من ينظر في الأمور انصافك في ذلك وردّه عليك ،

وكانت المقاطعة المذكورة ممضاة على تصرّف الأحوال كلّها .

ثم انّا رأينا بعد ما أمضاه مولانا أمير المؤمنين ، وأمضيناه لك من ذلك وتمامه واحكامه ووجوبه وثبوته ، أن سوّغناك هذه الخمسة آلاف درهم المؤدّاة عن هذه المقاطعة على استقبال سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الخراجية ، تسويغا مؤبّدا ، ماضيا على مرّ السنين : ليكون في ذلك بعض العوض عن باقي أملاكك وضياعك التي قبضت عنك ، وبعض المعونة فيما أنت متصرف عليه من خدمتنا ، ومردد فيه من مهمات أمورنا ، وأوجبنا لك في هذا التسويغ جميع الشروط التي تشترط في مثله ، مما ثبت في هذا الكتاب ومما لم يثبت فيه : لينحسم عنك تتبّع المتتبعين ، وتعقّب المتعقبين ، وتأوّل المتأوّلين على الوجوه والأسباب .

وأمرنا - متى وقع على مال هذا التّسويغ (وهو خمسة آلاف درهم) ارتجاع ، بحدث يحدث عليك ، أو بتعويض تعوّض عنه ، أو بحال من الأحوال التي توجب ارتجاعه أن يكون أصل المقاطعة ممضّى لك ، ورسمها

باقيا عليك وعلى من تنتقل هذه الضياع اليه بعدك ، على ما خرج بـــه أمير المؤمنين فى ذلك ، من غير نقض ولا تأوّل فيه ، ولا تغيير لرسم من رسومه ، ولا تجاوز لحدّ من حدوده ، على كل وجه وسبب .

فليعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين الطائع لله وأمره ، ومن امتثالنـــا وامضائنا ، وليعمل عليه جماعة من وقف على هذا الكتاب : من طبقات الكتّاب ، والعمال ، والمشرفين ، والمتصرفين فى أعمال الخُراج والحماية والمصالح ، وغيرهم . وليحذروا من مخالفته ، وليمضوا بأسرهم لمحمد بن عبد الله بـــن شهرام ومن بعده جميعه ، وليحملوه على ما يوجبه . وليقرّ هذا الكتاب فى يده وأيديهم بعده حجة له ولهم ، ولينسخ فى جميع الدواوين ، ان شاء الله تعالى .

٣ - نسخة توقيع عن السلطان صلاح الدين .[1]

وهذه نسخة توقيع ، كتب به عن السلطان صلاح الدين " يوسف بن أيوب " رحمه الله ، لأخيه العادل " أبى بكر " باقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بكر ، فى سنة ثمانين وخمسمائة ، بعد الانفصال من حرب الكفار بعكّا وعقد الهدنة معهم ، وهى :-

الحمد لله الذى جعل أيامنا حسانا ، وأعلى لنا يدا ولسانا ، وأطاب محتدنا أوراقا وأغصانا ، ورفع لمجدنا لواء لجدّنا برهانا ، وحقّق فينا قوله : (سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا) .

نحمده على سبوغ نعمته ، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين فى رحمته .

ثم نصلى على رسوله محمد الذى أيده بحكمته ، وعصمه من الناس بعصمته ، وأخرج به كلّ قلب من ظلمته ، وعلى آله وأصحابه الذين خلفوه

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٨ .

فأحسنوا الخلافة فى أمته .

أما بعد ، فان فروع الشجرة يأوى بعضها الى بعض لمكان قربه ، ويؤثر بعضها بعضا من فضل شربه ، ونحن أهل بيت عرف منا وفاق القلوب ودّا ، وايثار الأيدى رفدا ، وذلك وان كان من الحسنات التى يكثر فيها اثبات الأقلام ، فانه من مصالح الملك التى دلّت عليها تجارب الأيام ، وكلا هذين الأمرين مشكورة مذاهبه ، محمودة عواقبه ، مرفوعة على رؤوس الأشهاد مناقبه ، وما من أحد من أدانينا الا وقد وسمناه بعوارف يختال فى ملابسها ، ويسرّ فى كلّ حين بزفاف عرائسها ، ولم نرض فى بل أرحامهم بمواصلة سلامها دون مواصلة برّها وادناء مجالسها ، ولاخوتنا من ذلك أوفر الأقسام ، كما أنّ لهم منّا رحما هو أقرب الأرحام ، وقد أمرنا بتجديد العارفة لأخينا الملك العادل ، الأجلّ ، السيد ، الكبير ، سيف الدين ، ناصر الاسلام " أبى بكر " أبقاه الله . ولو لم نفعل ذلك قضاء لحق اخائه الذى ترفّ عليه حوانى الأضالع ، لفعلناه جزاء لذائع خدمه التى هى نعم

الذّرائع ، فهو في لزوم آداب الخدمة بعيد وقف منها على قدم الاجتهاد ، وفي لحمه شوابك النّسب قريب وصل حرمة نسبه بحرمة الوداد ، وعنده من الغناء ما يحكم لآماله ببسطه الخيار ، ويرفع مكانته عن مكانة الأشباه والأنظار ، ويجعله شريكا في الملك والشريك مساو في النقض والامرار ، فكم من موقف وقفه في خدمتنا فجعل وعره سهلا ، وفاز فيه بارضائنا وبفضيلة التقدّم فانقلب بالمحبذين ارضاء وفضلا ، ويكفي من ذلك ما أبلاه في لقاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجه ، وتمادى في لجاجه ، ونزل على ساحل البحر فأطلّ عليه بمثل أمواجه ، وقال : لا براح ، دون استفتاح ، الأمر الذي عسرت معالجة رتاجه ، وتلك وقائع استضأنا فيها برأيه الذي ينوب مناب الكمين في مضمره ، وسيفه الذي ينسب من الاسم الى أبيضه ومن اللّون الى أخضره ، ولقد استغنينا عنهما بنضرة لقبه الذي تولّت يد الله طبع فضله ، وعنيت يد السيادة برونق صقله ، فهو يفري قلوب الأعداء قبل الأجساد ، ويسري اليهم من غير حامل لمناط النّجاد ،

ويستقصى فى استلابهم حتى ينتزع من عيونهم لذة الرّقاد ، وليس للحديد جوهر معدنه المستخرج من زكاء الحسب ، واذا استنجد قيل له : يا ذا المعالى ! كما يقال لسميّه : يا ذا الشّطب ، ولو أخذنا فى شرح مناقبه لظلّ القلم واقفا على أعواد منبره ، وامتدّ شأو القول فيه فلم ينته مورده الى مصدره ، فمهما خوّلناه من العطايا فانه يسير فى جنب غنائه ، ومهما أثنينا عليه فانه سطر فى كتاب ثنائه .

وقد جعلنا له من البلاد ما هو مقتسم من الديار المصرية والشامية ، وبلاد الجزيرة وديار بكر : ليكون له من كل منها حظ تغيض يده فى أمواله ، ويركب فى حشد من رجاله ، ويصبح وهو فى كل جانب من جوانب ملكنا كالطّليعة فى تقدم مكانها ، وكالرّبيئة فى اسهار أجفانها .

فليتسلّم ذلك بيد معظم قدرا ، ولا يستكثر كثرا ، ويحمل منها رفدها غيثا أو بحرا ، وكذلك فليعدل فى الرعيّة الذين هم عنده ودائع ، وليجاوز بهم درجة العدل الى احسان الصنائع ، فاذا أسند هذا الأمر

الى ولا ته فليكونوا تقاة لا يجيد الهوى عليهم سبيلا ، ولا يحمد الشيطان عند هم مقيلا ، واذا حمّلوا ثقلا لا يجد ون حمله ثقيلا .

وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرّشوة وهي سحت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبذه ونهى عن أخذه ، وعن الرغبة في تداوله ، وهو كأخذ الربا الذى قرنت اللعنة بمؤكله وآكله .

وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ، ولامضاء أحكامها أجناد ، ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق اليها النّفاد ، فينبغى أن يعوّل فيهم على الواحد دون الاثنين ، وأن يستعان منهم في الفصل بذى الأيدى وفي اليقظة بذى اليدين ، ومن رام هذا المنصب سائلا فليُسلَمه وليغلظ القول في تجريع ملامه ، وليعرف أنه ممّن رام أمرا فأخطأ الطريق في استجلاب مرامه ، وأمر الحكّام لا يتولاّه من سأله ، وانما يتولاّه من غفل عنه وأغفله .

واذا قضينا حق الله في هذه الوصايا فلنعطفها على ما يكون لها

تابعا ، ولقواعد الملك رافعا ، وذاك أنّ البلاد التى أضفناها اليك : فيها مدن ذات أعمال واسعة ، ومعاقل (ذات) حصانة مانعة ، وكلها يفتقر الى استخدام الفكر فى تدبيره ، وتصريف الزمان فى تعميره ، فولّ وجهك اليها غير وان فى تكثير قليلها ، وترويض مخيلها ، وبث الأمنة على أوساطها ، واهداء الغبطة الى أفئدة أهلها حتى تسمع باغتباطها ، وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ، ويتمثل بقوله تعالى : (بلدة طيبة ورب غفور) .

واعلم أنه قد يجاورك فى بعضها جيران ذو بلاد وعساكر ، وأسرّة ومنابر ، وأوائل للمجد وأواخر ، وما منهم الا من يتمسك منا بود سليم ، وعهد قديم ، وله مساعدة نعرف له حقها (والحق يعرفه الكريم) .

فكن لهؤلاء جارا يودّون جواره ، ويحمدون آثاره ، وان سألوك عهدا فابذله لهم بذل وفى واقف على السّنن ، مساو بين السرّ والعلن ، ولا يكن وفاؤك لخوف تتقى مراصده ، ولا لرجاء ترقب فوائده ، فالله قد

أغناك أن تكون الى المعاهدة لاجيا ، وجعلك بنا مخوفا ومرجوّا لا خائفا ولا راجيا ، وقد زدناك فضلة فى محلك تكون بها غيرك مفضّلا ، وقد كنت من قبلها أغرّ فأوفت بك أغرّ محجّلا ، وذاك أنّا جعلناك على آية الخيل تقودها الى خوض الغمار ، وتصرّفها فى منازل الأسفار ، وترتّب قلوبها وأجنحتها على اختلاف مراتب الأطوار ، فنحن لا نلقى عدوّا ولا ننهد الى بلد الا وأنت كوكبنا الذى نهتدى بمطلعه ، ومفتاحنا الذى نستفتح المغلق بيمن موقعه ، ونوقن بالنصر فى ذهابه وبالغنيمة فى مرجعه ، والله يشرح لك صدرا ، وييسر لك منّا أمرا ، ويشدّ أزرنا بك كما شدّ لموسى بأخيه أزرا ، والسلام .

٤ - نسخة توقيع باقطاع لأمير أيوبي

وهذه نسخة توقيع باقطاع ، كتب بها لأمير قدم على الدولة فاستخدمته ، وهى : -(١)

أما بعد ، فانّ لكلّ وسيلة جزاء على نسبة مكانها ، وهى تتفاوت فى أوقات وجوبها ومثاقيل ميزانها ، ومن أوجبها حقا وسيلة الهجرة التى طوى لها الأمل من شقّته ما طوى ، وبعث بها على صدق النية " ولكل امرىء ما نوى " ، فالأوطان اليها مودعه ، والخطوات موسعه ، والوجوه من برد الليل وحرّ النهار ملفّعه ، وقد توخّاها قوم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحظوا فى الدنيا باعتلاء المنار ، وفى الآخرة بعقبى الدار ، وقدّموا على من آوى ونصر فقال تعالى : (والسّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار) . ثم صارت هذه سنّة فيمن هاجر من أقوام الى أقوام ، واستبدل بأنام عن أنام ، وكذلك فعلت أيّها الأمير فلان - وفقك الله - وقد تلقّيت هجرتك هذه بالكرامة ، وزخرفت لها دار الاقامة ، فما ابتغيت بها بغية الا سهّلت لك فجاجها ، أو عاج عليك معاجها ،

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

وحمد لديك تأويبها وادلاجها ، وأصبحت وقد وجدت خفضا غبّ السرى ، وخطيت منك الجفون على أمن الكرى ، وتبوّأت كنف الدولة التى هى أم الدّول اذ صرت الى القرية التى هى أمّ القرى . ونحن قد أدنيناك منّا ادناء الخيط والعشير ، ورفعناك الى محل الاختصاص الذى هو المحلّ الأثير ، واخينا بينك وبين عطايانا كما ووخى بين الصّحابة النّبوية يوم الغدير .

هذا ولك وسيلة أخرى تعدّ من حسان المناقب ، وتوصف بالصّفات الأطايب ، وما يقال الا أنها من الأطواد الرّواس ، وأنها تبرز فى اللباس الأحمر وغيرها لا يبرز فى ذلك اللّباس ، وهى التى تجعلك بوحدتها فى كثره ، وتتأمّر بها من غير امره ، وطالما أطالت يدك بمناط البيض الحداد ، وفرّجت لك ضيق الكّر وقد غصّ بهوادى الجياد ، وحسّنتك العيون وقد رميت منك بشرق القذا ونبوة السّهاد ، ومن شرف الاقدام أن العدوّ يحب العدّو من أجله ، ويضطّره الى أن يقرّ بفضله ، ومذ وصلت

الينا وصلناك بأمرائنا الذين سلفت أيامهم ، وثبتت فى مقامات الغناء أقدامهم ، وتوسّمنا أنك الرجل الذى يزكو لديك الصّنيع ، وأنك ستشفعه بحقوق خدمتك التى هى نعم الشفيع .

وقد عجّلنا لك من الاقطاع ما لا نرضى أن تكون عليه شاكرا ، وجعلناه لك أولا وان كان لغيرك آخرا ، وهو مثبت فى هذا التوقيع بقلم الديوان الذى أقيم لفرض الجند كتابا ، ولمعرفة أرزاقهم حسابا ، وهو كذا وكذا .

فتناول هذا التخويل الذى خوّلته باليمين ، واستمسك به استمساك الضّنين .

واعلم أنه قد كثر الحواسد لما مددناه من صنعك ، وبسطناه من ذرعك ، فأشج حلوقهم بالسعى لاستحقاق المزيد ، وارق فى درجات الصعود وألزمهم صفحة الصعيد .

والذى نأمرك به أن (تعد) نفسك للخدمة التى جعلت لها قرنا وأنت بها أغنى ، وأن تنتهى فيها الى الأمد الأقصى دون الأدنى ،

فلا تضم جناحك الآ على قوادم من الرجال لا على خواف ، واذا استنفرت فانفر بثقال من الخيل وخفاف ، وكن مذخورا لواحدة يقال فيها : ياعزائم اغضبى ، ويا خيل النّصر اركبى ، وتلك هى التى تتظلّم بها الجماجم مـــن الضّراب ، وتلاقى فيها عصب الغربان والذّباب ، ولا تحتاج مع هذه الـــى منقبة تتجمّل بتفويفها ، وتتكثّر بتعريفها ، وتنتمى الى تليدها باستحداث طريفها .

والله تعالى يشدّ بك أزرا ، ويملأ بك عينا وصدرا ، ويجعل الفلج مقرونا برأيك ورايتك حتى يقال : " ومكروا مكرا " وجرّدنا بيضا وسمــوا ، والسلام ان شاء الله تعالى .

٥ - نسخة توقيع باقطاع لبعض الأمراء الصغار

نسخة توقيع باقطاع (١)، كتب به لبعض الأمراء الصغار ، وهي :-

القلم والرّمح قلمان كلاهما أسمر ، وكما تشابها في المنظر فكذلك تشابها في المخبر ، غير أن هذا يركب في عسكر من القول وهذا يحمل في عسكر ، وقد نطق أحدهما بالثناء على أخيه فأحسن في نطقه ، وأقرّ له بالفضيلة ومن الانصاف أن يقرّ لذى الحق بحقّه ، غير أنّ هذه الفضيلة تعزى الى من يقيم أود الساعي بتقويم أوده ، ولا يرى لها سبيلا قصدا الا بالوطء على قصده ، وهو أنت أيها الأمير فلان أيّدك الله!.

وقد اخترناك لخدمتنا على بصيره ، وأجريناك من اعتنائنا على أكرم وتيره ، ورفعنا درجتك فوق درجة المعلّى لمن سبقك وانها لكبيره.

ولم يكن هذا الاختيار الا بعد اختبار لا يحتاج معه الى شهادة ، ولو كشف الغطاء لم يجد اليقين من زياده ، فطالما عجمت نبعتك ، وتيمنت طلعتك ، ولم تعرض سلعة الغناء الا نفقت سلعتك ، ومثلك من

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٥٠ - ١٥٢.

تباهى الرجال بمكانه ، وتخلّى له فضلة عنانه ، ويتّسع ميدان القول فـــى
وصفه اذا ضاق بغيره سعة ميدانه ، وما يقال الا أنّك الرجل الذى تقذف
الجانب المهمّ بعزمك ، وترمى برأيك قبل رماء سهمك ، وبك يحسر دجى
الحرب الذى أعوزه الصّباح ، ويحمى عقابها أن يحصّ له جناح ، فأسباب
الاعتضاد بك اذن كثيرة الأعداد ؛ وأنت الواحد المشار اليه ولا تكثـــر
الا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بسم الله فى صدر الكتاب ، وجعلناه
كالغمامة التى تأتى أولا بالقطار ثم تأخذ فى الأنسكاب ، وخير العطــــاء
ماربّ بعد ميلاده ، وأينع ثمره بعد جداده ، وان صادف ذلك وسائل خدم
مستأنفة كان لها قرانا ، وصادف الاحسان منه احسانا ، وقد ضمن الله تعالى
للشاكر من عباده مزيدا ، ولم يرض له بأن يكون مبدئا حتى يكون معيدا ،
وكذلك دأبه فيمن عرف مواقع نعمه ، وعلم أن صحتها لا تفارقه ما لـــم
يعدها بسقمه .

تباهى الرجال بمكانه ، وتخلّى له فضلة عنانه ، ويتّسع ميدان القول فـــى وصفه اذا ضاق بغيره سعة ميدانه ، وما يقال الا أنّك الرجل الذى تقذف الجانب المهمّ بعزمك ، وترمى برأيك قبل رماء سهمك ، وبك يحسر دجى الحرب الذى أعوزه الصّباح ، ويحمى عقابها أن يحصّ له جناح ، فأسباب الاعتضاد بك اذن كثيرة الأعداد ؛ وأنت الواحد المشار اليه ولا تكثـــر الا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بسم الله فى صدر الكتاب ، وجعلناه كالغمامة التى تأتى أولا بالقطار ثم تأخذ فى الأنسكاب ، وخير العطـــاء ماربّ بعد ميلاده ، وأينع ثمره بعد جداده ، وان صادف ذلك وسائل خدم مستأنفة كان لها قرانا ، وصادف الاحسان منه احسانا ، وقد ضمن الله تعالى للشاكر من عباده مزيدا ، ولم يرض له بأن يكون مبدئا حتى يكون معيدا ، وكذلك دأبه فيمن عرف مواقع نعمه ، وعلم أن صحتها لا تفارقه ما لـــم يعدها بسقمه .

من اللباس ، ويعينهم على اعداد القوة ليوم الباس ، ويقصّر لديهم شقّة الأسفار التي تذهب بنزقات الشّماس ، وينقطع دون قطعها طول الأنفاس، وأيّ فائدة في عسكر يأخذ بعد المسرى في حوره ، ولا يزيد صبره بزيادة سفره ، ويكون حافره وخفّه سواء في انتساب كل منهما الى شدّة حجره .

فانظر الى هذه الوصية نظر من طال على صحبه بالكفّ الأوسع ، وعلم ما يضرّ فيهم وما ينفع ، والله يمنحك من لدنه توفيقا ، ويسلك بك الى الحسنى طريقا ، ويجعلك خليقا بما يصلحك وليس كلّ أحد بصلاحه خليقا ، والسلام .

٦ - نسخة توقيع بولاية ناحية واقطاع بلادها

نسخة توقيع بولاية ناحية واقطاع بلادها لمتوليها، وهى (١) : -

الحمد لله على عوائده الجميلة وعواطفه، وفوائده الجزيلة وعوارفه، ناصب الحق وناصره، وقاصم الباطل وقاصره، ومنير الدين ومديله، ومبير الكفر ومذيله، وشادّ أزر أوليائه وسادّ ثغرهم، وناصر معزهم ومعز نصرهم، الذى أضفى علينا مدارع نعمه، وأصفى لدينا مشارع كرمه، وأعلق أيدينا من العدل بأوكد الأسباب والأمراس، وصرف بنا صرف العسف وكف بكفايتنا كفّ البؤس عن الرعّية والباس، وجلب الى استجلاب الشكر من الناس همّتنا، وطوى على حبّ البرّ وابرار المحب طويّتنا، وحسم بما أولاناه من أيد مادّة كلّ يد تمتدّ الى محظور، ويسّرنا ببساط العدل المطوىّ لما طوى بعدلنا بساط الظلم المنشور، وأبى لنا أن نكفر نعمة أونهبها لكافر، أو نذع شكر منه أو نودعها عند غير شاكر.

ولمّا كان الأمير فلان ممّن سبقت لجدّه ولأبيه - تعاهد الله بالعهاد متواهما، وخص بثرار الرحمة ثراهما - الحرم الأكيدة، والخدم الطريفة

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١١، ص ٣٣ - ٣٤

والتّليد ه ، ولم يزالا مجتهد ين فى تعمير هذا البيت وتشييد أسّــه ، ملازمى الاداب فى انمائه وتشد يد غرسه ، مفضيين بالموالاة الى مواليـه ، مفصحين بالمعاداة لمعاد يه ، رأينا ـ لازال الاقبال لآرائنا مقابـــلا ومرافقا ، والسعد مساعدا والتوفيق موافقا ، ـ أن نلحقه بدرجــــة أوّليه ، ونورد ه من كرمنا مورد جد ه وأبيه ، ونثنى اليه عنان عنايتنـا ، ونرعاه بعين رعايتنا ، ونلحفه جناح لطفنا ، ونبوّئه مقعد شرف تحـت ظلّنـا ، ونحرس حدّ ه من الفلول ، وجدّ ه من الخمول ، وعود ه من الخور ، وورد ه من الكدر ، وأن نقرره على ما بوأنا فيه والد ه من الهبات والانعام والافضال والاحسان ، وجميع ما د خل تحت اسمه من المعاقل والبلدان ، وسيوضح ذلك بقلم الديوان .

فليقابل هذا الانعام من الشكر بمثله ، ويوازي هذا الافضال من حسن القبول بعدله ، وليرتبط نعم الله عنده بالشكر الوافى الوافر ، فالسعيد من أطّرح خلة الشاكى وادرع حلة الشاكر ، وليد من التحدث بها بالتحدث

بالنعم من الشكر ، ويستجذب موادّها بايضاح سبل البر ، ويجعل التقوى شعاره ودثاره ، ويخلص الطاعة لله ايراده واصداره .

وليكن العدل ربيئته ورائده ، والأمر بالمعروف دليله وقائده ، وليقم فيما نيط به حق القيام ، ويشمر في حفظ ما استرعيناه عن ساق الاهتمام ، ويعلم أن منزلته عندنا أسنى المنازل وأعلاها ، ومرتبته لدينا أبهج المراتب وأبهاها ، ومحلّه عندنا السامي الذي لا يضاهيه سامي ، ومكانه المكان الذي ليس له في الممكن أن يفترع علمه سامي ، فسبيله علم ذلك وتحقيقه ، وتيقنه وتصديقه ، وسبيل كلّ واقف على هذا المثال ، (أن) يقابله بالامتثال ، من سائر العمال ، وأرباب الولايات والأعمال . والاعتماد على العلامة الشريفة في أعلاه ، ان شاء الله تعالى .

المصادر والمراجع

أولا : - المصـــادر

أ - المخطوطـات

الأصفهاني ، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن صفي الدين

(ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) .

- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ٢٩٥٩ بمكتبة أحمد الثالث باستانبول .

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .

- الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، مخطوط رقم ٤٣١٣ بمكتبة فاتح باستانبول .

الذهبي ، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .

- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مخطوط رقم ٤٢ تاريخ بدار الكتب المصرية .

- دول الاسلام ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستانبول .

ابن شداد ، عز الدين عبد الله بن محمد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)

- الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، مخطوط رقم ١٥٦٤ بمكتبة أحمد الثالث باستانبول .

ابن العديم ، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)

- بغية الطلب من تاريخ حلب ، مخطوط رقم ٢٩٢٥ بمكتبة أحمد الثالث باستانبول .

العينى ، بدر الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ٢٩١١ بمكتبة أحمد الثالث باستانبول .

ابن الفرات ، ناصر الدين محمد (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)

- تاريخ الدول والملوك ، مخطوط رقم ٣١٩٧ بدار الكتب المصرية .

المقريزى ، أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) .

- التاريخ الكبير ، مخطوط رقم ١٤٩٦ بمكتبة السليمانية باستانبول .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) .

- نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوط رقم ٥٤٩ بدار الكتب المصرية .

ابن أبى الهيجاء (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) .

- تاريخ ابن أبى الهيجاء ، مخطوط رقم ٥٩٤ بمعهد المخطوطات العربية .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) .

- التاريخ الصالحى ، مخطوط رقم ٤٢٢٤ بمكتبة فاتح باستانبول .

ابن وصيف شاه

- جواهر البحور ووقايع الأمور وعجايب الدهور وأخبار الديار المصرية ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٥٧٣١

....

ب ـ المطبوعـــــات

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن أحمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)

- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ .
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٦هـ .

الأصفهانى ، عماد الدين ابو عبدالله بن صفى الدين (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)

- الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح .
- البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن ، استانبول
- سنا البرق الشامى ، ١٩٧٠ .

الأصفهانى ، الفتح بن على البندارى (من علماء القرن التاسع الهجرى)

- دولة آل سلجوق ، مصر ١٣١٨هـ

ابن اياس ، أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ١٩٦١ .

البرهان الغورى ، علاء الدين على التقى بن حسام الدين (٩٧٥هـ/ ١٥١٩م) .

- كنز العمال ، حلب ١٩٧٨م.

الخطيب البغدادى ، الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ، (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٥م) .

- كتاب تاريخ بغداد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٣١م.

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) .

- فتوح البلدان ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

- أنساب الأشراف ، ١٩٣٦ .

بنيامين التطيلى .

- رحلة بنيامين ، بغداد ، ١٩٤٥م.

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ١٩٣٥م.

التنوخى ، أبو على المحسن بن أبى القاسم (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٧م) .

- جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة فى أخبار المذاكرة ، دمشق ، ١٩٣٠م.

الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م)

- الوزراء والكتاب ، القاهرة ، ١٩٣٨م.

ابن الجيعان ، شرف الدين ابو البقاء يحيى (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)

- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، بولاق ١٨٩٨ .

ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) .

- الاصابة فى تمييز الصحابة ، مصر ١٩٢٣ .

- انباء الغمر بأنبا العمر ، تحقيق حسن حبشى .

الحنبلى ، أحمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) .

- شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، بغداد ١٩٧٨ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م) .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٧١ .

ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان ، بيروت ١٩٧٢ .

الخوارزمى ،أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)

- مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث الأزدى (ت ٢٧٥هـ /

- سنن أبى داود ، القاهرة

ابن دقماق ، غرس الدين ابراهيم بن أيدمر العلائى (ت ٨٠٩ هـ /

١٤٠٦م) .

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، مصر ١٣٠٩ هـ .

الدوادارى ، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م) .

- الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١ .

- الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .

الذهبى ، الحافظ محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م)

- العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٣ .

ابن الراهب ، أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم

- تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣م.

سبط ابن الجوزى ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) .

- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر أباد ١٩٥١م.

السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :

- معيد النعم ومبيد النقم ، مصر ١٣١٧ هـ .

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهدى (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)

- كتاب الطبقات الكبرى ، بيروت .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٨ .

- تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٥٢ .

- الجامع الصغير ، القاهرة ١٩٣٩م.

أبو شامة ،شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) .

- الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧هـ ، ١٩٦٢م.

- الذيل على الروضتين ، بيروت ، ١٩٤٧م.

ابن شاهنشاه ، محمد بن تقى الدين عمر (ت ٦١٧هـ ١٢٢٠م) .

- مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ .

ابن شداد ، بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) .

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .

الشيزرى ، أسامه بن مرشد الكنانى (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) .

- كتاب الاعتبار ، ١٩٣٠م .

الصابى ، هلال أبو الحسن (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) .

- تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤م .

الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد البغدادى (ت ٣٣٥هـ) .

- كتاب أدب الكتاب ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

ابن الصيرفى ، على بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) .

- الاشارة الى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢ م) .

- تاريخ الأمم والملوك ، ليدن ١٨٨١ .

الطوسى ، نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) .

- سياست نامه ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، القاهرة ١٩٧٥ .

ابن ظافر الأزدى ، جمال الدين على (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)

- أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٤م) .

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، القاهرة ١٩٣٩ .

ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبد الله (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م) .

- فتوح مصر ، ليدن ١٩٢٠ .

ابن العبرى ، غرينوريوس الملطى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

- تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ .

أبو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨ م) .

- كتاب الأموال ، القاهرة ١٩٧٥ .

ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عمر (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م) ٠

- زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م ٠

عريب بن سعد (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨١م)

- صلة تاريخ الطبرى ، ليدن ١٨٩٧ ٠

ابن عساكر ، ابو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥م) ٠

- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١ ٠

ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى ، (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) ٠

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٩٣١ ٠

العمرى ، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) ٠

- التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢هـ ٠

ابن العميد ، المكين جرجس

- أخبار الأيوبيين ، تحقيق كلود كاهن ، ونشر بمجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسي بدمشق ، جزء ١٥ ، ١٩٥٥-١٩٥٧.

أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل ، (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) .

- المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م)

- تاريخ الدول والملوك ، المجلد التاسع تحقيق قسطنطين ، بيروت ١٩٣٦ ، المجلد الرابع تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ، ١٩٦٩.

الفيروز أبادى ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧ هـ/ ١٤١٤م)

- القاموس المحيط ، القاهرة ١٣٤٤ هـ .

ابن قاضي شهبة ، بدر الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م) .

- الكواكب الدرية في السيرة النوريـــة ، تحقيق محمود زايد ، بيروت، ١٩٧١م.

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج البغدادى (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) .

- نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ١٨٨٩ .

ابن القلانسى ، أبو يعلى حمزة ، (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) .

- ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

- صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .

ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م) .

- البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦ .

الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) .

- كتاب الولاة وكتاب القضاه ، بيروت ١٩٠٨ .

الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب (٤٥٠هـ/ ١٠٥٧م)

- الأحكام السلطانية ، مصر ١٩٦٠ .

المقرى ، أحمد بن محمد بن على الفيومى (٧٧٥ هـ / ١٣٧٤م) .

- المصباح المنير ، القاهرة ١٩٥٠.

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠

- اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠.

- البيان والاعراب عمن بأرض مصر من الاعراب ، القاهرة ١٩٦١.

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق زيادة ١٩٣٤ - ١٩٥٨م.

ابن مماتى ، الأسعد أبو المكارم بن أبى سعيد (ت ٦٠٦ هـ /١٢٠٩م)

- قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ١٢٩٩.

ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١ هـ / ١٣١١م)

- لسان العرب ، بيروت ١٩٦٨.

ابن ميسر ، محمد بن على بن يوسف (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م).

- أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩.

النابلسى ، أبو عثمان الصفدى (من علماء القرن السابع الهجرى) .

- تاريخ الفيوم وبلاده ، بيروت ١٩٧٤

- لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، تحقيق كلود كاهن .

ناصرى خسرو علوى (مات بعد سنة ١٠٨٧ م) .

- سفر نامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣٢م)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبعة دار الكتب ١٩٢٣-١٩٥٦ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م) .

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق الشيال ١٩٥٣ - ١٩٦١ ، والجزء الرابع تحقيق حسنين ربيع ١٩٧٢ .

ابن الوردى ، زين الدين عمر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م)

- تتمة المختصر فى اخبار البشر ، تحقيق البدراوى ، بيروت .

اليافعى ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ١٩٧٠.

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

- معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٧.

يحيى بن آدم ، أبو زكريا بن سليمان القرشى (ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨م)

- كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م).

- غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عاشور ، ١٩٦٨.

أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم الأنصارى (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م)

- كتاب الخراج ،طبعة بولاق

. . . .

ثانيا - المراجـــع :

أ - المراجع العربيــة

ابراهيم على طرخان (الدكتور) .

- النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨.

أحمد عبد الله خيـاط .

- الاقطاع فى الدولة الاسلامية حتى نهاية العصر العباسى الأول ، رسالة ماجستير كلية الشريعة بجامعة أم القرى ١٤٠١هـ ، لم تطبع.

البستانــى

- محيط المحيط ، بيروت ، ١٨٧٠م.

جمــال الدين الشيال .

- طريقة مسح الأراضى وتقدير الخراج فى مصر الاسلامية ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ٩٧ نوفمبر ١٩٤٠.

الزركلــى خير الدين .

- الاعلام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور)

- تاريخ الاسلام السياسى ، القاهرة ، ١٩٦٧م٠

حسن حبشى (الدكتور)

- نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨م٠

حسنين محمد ربيع (الدكتور)

- النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤م٠

دائرة المعارف الاسلامية

- الترجمة العربيـة

ستانلى لين بول

- سيرة القاهرة ، القاهرة ١٩٥٠٠

سعاد ماهر (الدكتورة)

- البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ،الطبعة الثانية ١٩٧٩٠

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)

- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠ .

- أوربا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٤م .

السيد الباز العريني (الدكتور)

- الاقطاع في الشرق الأوسط .

- مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠م .

شاكر مصطفى .

- التاريخ العربي والمؤرخون ، بيروت ١٩٨٠ .

عبد العزيز الدوري (الدكتور)

- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ، ١٩٤٨ .

عبد الله سعيد الغامدي .

- استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ، رسالة ماجستير - بكلية الشريعة بجامعة أم القرى ١٤٠٢هـ ، لم تطبع .

لويس معلـوف

- المنجد في اللغة والأعلام ، بيروت ١٩٦٩م.

مجمع اللغة العربية

- المعجم الوسيط ، القاهرة ١٩٦٠.

النجدي محمد بن عبد الله ابن بليهد .

- كتاب صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥١م.

محمد الخضـــري

- تاريخ الأمم الاسلامية ،القاهرة ١٩٥٣م.

محمد ضياء الدين الريس (الدكتور)

- كتاب الخراج في الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧م.

محمد عبد العال أحمد (الدكتور)

- الأيوبيون في اليمن ، الاسكندرية ١٩٨٠م.

- بنو رسول وبنو طاهر ، وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، الاسكندرية ١٩٨٠م.

- الاقطاع في فجر الاسلام، أحكامه ونشأته ، بحث بكتاب ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط ، المجلد الثالث ١٩٨٤م.

نظير حسان سعداوى

- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، القاهـــــرة ، ١٩٥٧م٠

- جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، القاهرة ، ١٩٥٩م٠

....

ب - المراجع الأوربية

- Cahen, Cl. Article ' Ayyubids ' , in Encyclopaedia of Islam , (New edition).

- Lambton , Ann, :
  - (a) Contributions to the study of Seljūq Institutions, London, 1939.
  - (b) Landlord and peasant in persia, London, 1953.

- Poliak , A. N.
  - (a) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and The Lebanon, London, 1939.
  - (b) The Ayyūbid Feudalism , in Journal of The Royal Asiatic Society (1939), pp. 428-432.

- Rabie (Hassanein):
  - (a) The Financial System of Egypt. A.H. 564- 741 / A.D. 1169 - 1341, London, 1972.

(b) The Size and Value of Iqtā' in Egypt , in Cook (ed.) Studies in the Economic History of the Middle East, London, 1970, pp. 129-138 .

==========================

==================

*